الباب الثاني

﴿إمام الزاهدين﴾

"ليس الفقه الهدر وكثرة الرواية

وإنما الفقه خشية الله"

عمر بن الخطاب

obeikandl.com

يقول أحمد: صاحب الحديث عندنا من يعمل به. وسنراه، عبد، أكثر المحدثين صحبة للحديث. بكثرة ما جمع للأمة منه، وكثرة ما جعله أصلاً لأحكام الفقه، وكثرة ما عمل به في حياته الواقعة، حتى صار إمامًا بعمله، ومن هذا المكان العظيم في الأمة سيصير إمامًا للمحدثين والفقهاء.

وزهد أحمد طابع حياته وعنوان طريقتهما يتلقاه عن زهد النبي وزهد صحبه، بمثل ما يتلقى عن سنة النبي وقول صحبه، أصلين يبنى عليهما فقهه وفكره، وعن طريق الزهد تأدى أحمد إلى مهمة حياته وبلغ غاياته في الفقه، وتألق نجمه في مجتمعه، وإن كان يتمنى أن يكون بشعب من الشعاب بمكة لا يعرفه أحد.

ومع أنه لم يفكر في التصوف الذي ابتدع اللاحقون أشكاله فالمتصوفة يعتبرونه واحدًا من أوتادهم، لعلمهم بالسنة.. وزهده هو الزهد الإيجابي الأمثل، القائم على العمل والذي يقوي القائم به ويشد عضده للنهوض بكل واجباته في الحياة الدنيا، دون اعتزال أو تماوت، أو تخيلات أو اصطناع هيئات، ويحمله مسئولية القدوة في العبادة والعلم والعمل، ويجعله بنحوة من آثار الروافد التي صبت، في محيط التصوف الفلسفي، تيارات الفلسفات الهندية والفارسية والإغريقية وغيرها.

وسنرى أمثالاً من التصوف المنبثق من السنة، ومن الزهد الإيجابي في الفصلين التاليين.

obeikandi.com

الفصل الأول

العامل بالسنة

"ويل للذي لا يعلم مرة وويل للذي
يعلم ولا يعمل سبع مرات"

أبو الدرداء

- الرجل
- السلوك الرفيع
- صاحب الحديث من يعمل به
- مدرسة الزهاد في بغداد
- فضول الدنيا

obeikandi.com

العلماء ورثة الأنبياء، ومعقد الرجاء للأمة، بالعطاء الفكري والفعلي الذي تسخو به أنفسهم، والمثل الحي الذي يلتمس لديهم، والأمل الفكري في استقامة الأمور على شاكلتهم.

وليس أدل على إخلاص العالم ولا أدعى للائتساء به من موقفه من المادة، تشبثًا بها أو زهادة فيها. والزهد أول ما يلتمسه الناس عند العلماء فلا يلقونه إلا لمامًا، لأفانين الفتنة التي يسلطها المجتمع عليهم أو التي تنبعث من أنفسهم، كالعجب والتطلع إلى الجاه أو الرفاه، وهي عيوب إذا اجتمعت على الفقيه بخع نفسه.

يقول مسروق: "بحسب امرئ من العلم أن يخشى الله وبحسب امرئ من الجهل أن يعجب بعلمه".

أما التطلع إلى الدنيا وزيوفها، فكثيرًا ما صير العلوم التي أعدت لخدمة الجماعة وعبادة الخالق أسباب تجارات في المحرمات، يباع فيها ما لا يباع ويشترى بجوهرها الغالي سقط المتاع، وتصبح الأمانة والتقوى نفاقًا وزلفى. ويندفع رجل العلم والحقيقة إلى الطواف حول الباطل وأطيافه دون تذمم أو تأثم. وأخسر هذه البياعات بيع رجل الدين نفسه تفاريق أو جملة. فترى له هرولة في سبيل الدرهم الواحد أشقى من هرولة غيره في سبيل ألف درهم! وتراه يخرج إلى البيداء يلتمس الماء، والماء فوق ظهره، وقد لا تكون له به حاجة!

سئل عبد الله بن المبارك من الناس؟ وأجاب: العلماء. فقيل له ومن الملوك؟ وأجاب: الزهاد. فقيل له من السفلة؟ فأجاب: من يأكل بدينه: ولما سئل مالك بن دينار: من الغوغاء؟ قال: الذين يطلبون بعلمهم الدنيا.

وكان أحمد بن حنبل يردد قول سفيان: "ما ازداد رجل علمًا فازداد به من الدنيا قربًا إلا ازداد من الله بعدًا".

وهو من قوله عليه الصلاة والسلام: "من ازداد علمًا ولم يزدد به هدى لم يزدد من الله إلا بعدًا" فما بالك بمن سخر العلم للبعد عن الله سبحانه!

ذلك فيه قوله عليه السلام: "من تعلم علمًا لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار".

أجل المسلمون عمر بن عبد العزيز وهو يتلقى العلم في المدينة حتى صار واحدًا من علمائها ثم أميرًا عليها، لكنه فاق نفسه يوم بلغ نهاية الإخلاص في العمل بعلمه، منذ أتته

الخلافة فأجاءت إليه الدنيا فأقسم أن يبتغي بها الآخرة، وأمسك بأزمة السلطة يقيم بها دعائم الدين وأود المسلمين ويرد إلى أصحاب الحقوق حقوقهم، منه أول رجل، وأخرب داره ليعمر بيوت المسلمين، وأغنى الناس فلم يجد عامله في المدينة أو في أفريقية فقراء يستحقون ما يبعث به من مال لتوزيعه في الفقراء وصاروا إذا تلاقوا لا يتساءلوا إلا عن عبادتهم وأورادهم في لياليهم.

لقد بصرت أعينهم بعمل صادق من خليفة عالم، فكان لهم فيه أسوة، وصاروا أسمع لصوته من صداه، والحواس أفعل في الناس من قضايا المنطق، والناس لا يقنعهم إلا مقتنع(٢٨).

وسجل هذا المعنى جيل عمر نفسه يوم دخل عليه "كثير" الشاعر يسمعه شعره فقال عمر "قل ولا تقل إلا حقًا فإن الله سائلك". فقال في إحدى قصائده الطوال:

وقلت فصدقت الذي قلت بالذي ... فعلت فأضحى راضيًا كل مسلم

---

(٢٨) كان الاقتداء بعمر بن عبد العزيز هو الدرس أو الدواء، لا غيره، يسقاه الرشيد من وعاظ عصره، يوم دخل على الفضيل بن عياض في غرفة مظلمة بمكة فقال له بين الذي قاله (... إن عمر بن عبد العزيز يوم ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله بن عمر بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة وقال لهم: "إني ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي". فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت نعمة.. وقال سالم: (إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك على الموت). وقال له محمد: (وليكن كبير المسلمين لك أبًا وأوسطهم لك أخًا وأصغرهم لك ولدًا. فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على والدك).. وقال له رجاء: "أحب المسلمين ما تحب لنفسك وأكره لهم ما تكره لنفسك.." وبكى الرشيد حتى غشى عليه فقال الفضل بين الربيع حاجب الرشيد: أرفق بأمير المؤمنين. قال الفضل. يابن الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟ فلما أفاق الرشيد قال: "زدني": قال الفضيل: (... بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه السرف فكتب إليه عمر يقول: يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار وخلود عباد الله فيها.. فلما قرأ كتابه طوف في البلاد حتى قدم عليه فقال عمر ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك. لا وليت لك ولاية أبدًا حتى ألقى الله). وبكى الرشيد ثم قال زدني فقال: إن جدك العباس عم النبي ﷺ جاء فقال: (يا رسول الله أمرني على إمارة) فقال له : "يا عم. نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها. إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أميرًا فافعل" فبكى الرشيد ثم قال زدني: فقال: يا حسن الوجه إن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك. فبكى الرشيد ثم قال: أعليك دين؟ قال دين لربي. قال الرشيد: إنما أعني دين العباد: (يريد سداده عنه أو بر قوم يريد الفضيل برهم) قال الفضيل: إن ربي لم يأمرني بهذا وإنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره. قال الرشيد (هذه ألف دينار خذها لعيالك وتقو به على عبادة ربك) قال الفضيل: سبحان الله – أنا أدلك على طريق النجاة وتكافئني بهذا!! سلمك الله. ثم صمت الفضيل.

ولما صدق الناس عمر وأقواله فتح الله عليهم وعليه. فجعل الوثبات التي يثبها من قمة إلى قمة أو من شواطئ الحرام والمظالم إلى شواطئ الحلال والنصفة، مجعل الحركات العادية واللفتات الطبيعية! تؤدي ثمارها من فورها، والمسلمون سعداء، إلا حفنة من أهله، الذين أنصف الناس منهم.

وسجل التاريخ العالمي للديانات والمجتمعات سابقة معلمة: أن شهورًا ثلاثين من عمل الناس بالدين، كافية لإسعاد الناس وتسديد الدولة وإثبات النجاح الكامل للنظرية الإسلامية، المتكاملة، في التشريع والاقتصاد والاجتماع.

وكان المجتمع، في ختام القرن الثاني للهجرة يعبر عصر الاهتمام الكبير بالدين إلى عصر الاهتمام الأكبر بالدنيا. ومضى قرن والفساد يزداد في كل ود، مذ قال عمر بن عبد العزيز: "إني نظرت في أمري وأمر الناس فلم أجد خيرًا من الموت لفساد الناس وما داخلهم من العيب" وخرج الناس من حروب الأمين والمأمون أو العرب والفرس بانتصار الفرس وارتفاع الترك وأفول نجم العرب، وبمعقبات خطرة، منتظرة، كالتي تعقب الحروب العالمية من تدمير قيم واستحداث أخرى، بانتهاء عصر وابتداء آخر. وكان نجم أحمد بن حنبل في هذه الأثناء في صعود لأن الأمة كانت بحاجة إليه.

الرجل

أحمد بن حنبل رجل ربعة، قصد القامة، يميل إلى الطول أسمر اللون، يخفي شاربه شديدًا، ويخضب بالحناء، ويأتزر ويعتم القلنسوة، ويجلس على لبد قد أبلته السنون، ويلبس الغليظ، لكن ثوبه ليس غليظًا ينكر أو رقيقًا ينكر وإن كان رخيص الثمن يؤخذ بالدينار ونحوه: ملحقته تساوي خمسة عشر درهمًا. ولم يكن لباسه بذاك، لكنه في نهاية من النظافة.

وقد يلبس كساء ثقيلاً. فلقد كان رقيقًا في البرد، ويلبس الجبة أحيانًا أو يلبس في الشتاء الفرو. وربما جمعهما. وفي الصيف يلبس قميصًا وسراويل ورداء.

وكثيرًا ما يلبس قميصًا ويتشح بالرداء. ولا يلبس طليسانًا قط. وسراويله دائمًا فوق كعبيه، وقد ترى عليه جبة خضراء فيها رقعة بيضاء من صوف، ولقد يريد ليرقع قميصه فلا يجد إلا أن يقتطع رقعة من إزاره.

وسيصبح لباسه أجود قليلاً بعد أن تجاوز السبعين عامًا إذ يستغني عنه ابناه بعطاء من الخليفة فيقاطعهما، ويعف عن طعامهما، ويسد ما يؤدي من داره إليهما. فيومئذ يجود لباس أحمد

شيئًا إذ تخلص له وحده، أجرة جوانيت ورثها، وكانت الأجرة، كلها في الشهر بضعة عشر درهمًا.

ومن قبل أحمد عد الناس في قميص عمر بن الخطاب أربع عشرة رقعة، ولما جاءه الفيء العظيم بعد فتح المدائن التفت إلى من حوله وقال: "إن قومًا أدوا هذا لأمناء". وجاء بأجسم عربي فألبسه أزياء كسرى ورفع عمر رأسه إلى السماء يقول: "اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك وكان أحب إليك مني وأكرم عليك، ومنعته أبا بكر وكان أحب إليك مني وأكرم عليك مني، وأعطيتنيه، فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بي..." (٢٩).

ولما أعطى أحمد تلميذه أبا باكر المروزي خفًا يرمه وجد فيه إصلاحات سابقة في خمسة أو ستة مواضع، إذ سبق لبسه سبع عشرة سنة، بل كان قد صار إليه وهو لبيس.

وذات يوم جيء بخف جديد فشغل قلبه الجديد، فهجره إلى القديم وقال: "الذي مضى أكثر مما بقى".

والبيت صغير ضيق ينام في أسفله في أيام الحر، في بهوه حصير خلق، وكتبه مطروحة حواليه، وفي المنزل حب خزف وكانون من طين، وطاق علق عليه مسحًا، وعلى بابه ستر خلق ملبد، وبقربه شيء مما تعلق به الأداوي في الأسفار، عليه قلال. لكن المكان نظيف يشع فيه الدفء والضوء من نفس صاحبه.

---

(٢٩) من العلماء لباسون، ومنهم من يكره أن يتجاوز عن ثياب الرجل أربعين درهمًا. ومنهم من لا يلبسون إلا ما يستر. ومنهم الذين يحاربون المظهر.. لقد قوم حمار شعبه بن الحجاج وسرجة ولجامه بثمانية عشر درهمًا. والمذموم هو ما فيه من خيلاء من الثياب، والمحمود ما كان إظهارًا لنعمة الله على عبده. وكان عليه السلام يلبس ما تيسر من الصوف تارة ومن القطن تارة، وكانت مخدته من أدم حشوها ليف نخل قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان) فقال له رجل: يا رسول الله أنا أحب أن يكون ثوبي حسنًا وفعلي حسنة! أفمن الكبر ذاك؟ قال: (لا – إن الله جميل يحب الجمال – الكبر يظن الحق وغمط الناس).

أما ملابس الصحابة فيقول فيها مالك بن دينار – أدركنا الصحابة وهم لا يعيب بعضهم على بعض الملابس من أعلى وأدنى. لا يعيب صاحب الخز على صاحب الصوف ولا صاحب الصوف على صاحب الخز. أحمد بن حنبل.

دخل ذات يوم على ابنه صالح فوجده قد غير سقف حجرته فدعاه فأملى عليه: "حدثني.. أن الأحنف بن قيس قدم من سفر وقد غيروا سقف بيته، حمروا شقائق وخضروهما، فقالوا: ألا ترى إلى سقف بيتك؟ قال معذرة إليكم. لم أره. لا أدخله حتى تغيروه.."

والحسن البصري يقول: "كنت إذا دخلت بيوت أصحاب النبي ﷺ ضربت بيدي إلى السقف"، ولم بلغ عمر أن سعد بن أبي وقاص بنى لنفسه قصرًا وجعل عليه حاجبًا بعث إليه محمد بن مسلمة ليحرق القصر وكتب إلى سعد: "بلغني أنك بنيت قصرًا، واتخذته حصنيًا، ويسمى بيت سعد، وجعلت بينك وبين الناس بابًا، فليس بقصرك، ولكنه قصر الخيال".

ولما دخل على أحمد بعض المحدثين وهو ضيف على الخليفة بالعسكر، فوجدوه ترك الفراش والرياش وانتبذ مكانًا قصيًا، ينام فيه كما ينام بداره، ولا يطعم طعام الخليفة وإنما يأكل من زاده الذي تزوده لهذه المناسبة، قالوا "ما هذا الغم يا أبا عبد الله؟ الإسلام حنيفية سمحة بيت واسع"! فلما خرجوا قال لصاحبه بالعسكر أبي بكر المروذي: انظر إلى هؤلاء، ما أريد أن يدخل على منهم أحد. وإنما امتنع أحمد من الجدال مع رجال جاءوا، أو جيء بهم، لإقناعه بأن يعب من النعيم المقيم في قصور الخلافة أو يبشم من الطعام الدسم على موائدها، والبيت واسع حيث الحرية، والحنيفية سمحة بالحلال وحده.

* * *

والزهد عند أحمد لا يتجزأ ليزهد حينًا ويترف حينًا وفق ما يعرض من أحوال، وإنما هو حقيقة تسيقنها النفس في أعماقها فتلزمها في كل حالاتها. دعا يومًا من يتدارس الزهد معه فبكر الرجل فطلب إلى أم ولد أحمد أن تبسط لهما حصيرًا ومخدة، وبسط الحصير في الدهليز وخرج أحمد والمحبرة والكتب في يده فشهد الحصيرة والمخدة فقال: ارفعوه والتفت إلى صاحبه يقول له: الزهد لا يصلح إلا بالزهد، وجلسا على التراب.

وهو لا يدع أحدًا يستقي الماء لوضوئه بل يستقيه بنفسه، ويصلي كل يوم ثلثمائة ركعة حتى إذا هدته أو عوقته آلات التعذيب وأسواط الجلادين في السادسة والخمسين من عمره فمرض، أصبح يصلي في اليوم مائة وخمسين ركعة. ينام نومة خفيفة بعد صلاة العشاء الأخير.. ثم يقوم فيلبس قلنسوة خاطها بيده، فيها قطن. ويصلي ويذكر الله حتى الصباح، ويقرأ في كل يوم سبعًا من القرآن فيختمه في سبعة أيام وقيل مرتين كل أسبوع، ولعل لكل من المقدارين عهدًا من عهود حياته. وكثيرًا ما كان يتلو سورة الكهف.

ولم يره تلميذه إبراهيم بن هانئ مدة اختفائه عنده مفطرًا إلا يومًا واحدًا أفطر فيه واحتجم. وعجز التلميذ عن مجاراة شيخه في العبادة.

حج خمس مرات: ثلاثًا منها وهو يمشي على قدميه، وضل في إحداها لولا أن هداه الناس إلى الطريق. وجاور بمكة عامًا وبعض عام.

وهو يؤثر العزلة ويقول: "أشتهي ما لا يكون، أشتهي مكانًا لا يكون فيه أحد من الناس" ويقول: "الخلوة أروح لقلبي" ويتمنى النزول بمكة يلقي بنفسه في شعب من تلك الشعاب حتى لا يعرف. ويقول: طوبى لمن أخمل الله ذكره.

يسأل حاتمًا الأصم فيم التخلص من الناس؟ ويجيب حاتم: في ثلاث خصال: أن توطئهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئًا، وأن تقضي حقوقهم ولا تستقصي حقًا لك، وتحتمل مكروههم ولا تكره أحدًا منهم على شيء. ويطرق أحمد ثم يرفع رأسه ويقول: يا حاتم إنها لشديدة. قال حاتم: وليتك تسلم.

وكثيرًا ما يقول: وددت أني نجوت من هذا الأمر كفافًا لا لي ولا عليّ. ولا يكف عن الدعاء: "اللهم سلم. سلم". ولما دعا له رجل بطول العمر قال للرجل: هذا أمر قد فرغ منه. وهو جواب يأثره عن عمر بن عبد العزيز.

وهذا الذي يؤثر الخلوة ويصلي في اليوم ثلثمائة ركعة يقدم العلم إذ يجيئه تلميذه أبو زرعة الرازي (٢٦٤) فينزله عنده – منزل الزهد. ويكثر مذكراته ثم يقول: "ما صليت اليوم غير الفرض لقد استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي".

وصفه معاصروه بأنه من أحيا الناس وأكرمهم نفسًا وأحسنهم عشرة وأدبًا. يتواضع تواضعًا شديدًا للشيوخ، وهم يكرمونه ويعظمونه، كثير الإطراق الغض، معرض عن القبح واللغو، إذا لقيه إنسان بش به واقبل عليه، ولم يكن بالخجول ولا الحقود ولا بالنفور من الناس، يقبل محبوه وجهه ورأسه وخده ولا يقول شيئًا. ولا يمتنع من ذلك ولا يكرهه، ولم ير تلاميذه في عصره أحدًا أجمع منه ديانة وصيانة وملكًا لنفسه وطلقًا لها وكرم مجالسة وبعدًا عن التماوت، فإذا جهل عليه جاهل أعرض عنه وقال: يكفي الله.

لا يسمع أحد منه إلا المذاكرة بالحديث وذكر الصالحين والزهاد في وقار وسكون ولفظ حسن.

ومجالسته مجالسة الآخرة لا يذكر فيها شيء من الدنيا.

وهو الأب الودود والجد المجامل بما يجده. قال حفيده زهير بن صالح: كنا ندخل إليه في كل جمعة أنا وأخوتي وكان بيننا وبينه باب مفتوح فكان يكتب لكل واحد منا حبتين من فضة في رقعة إلى فامي (بقال) يعامله فنأخذ منه الحبتين ونأخذ منه للأخوات.

وقال: ختن أخ صغير لي فحضر جدي وأخرج صريرة ودفعها إلى الحجام وصريرة إلى الصبي وقام فإذا في كل صرة درهم..

وفي ختان دعي إليه ألقى درهمين في طست.

وهو يستجيب للدعوى في العرس أو في وليمة الصديق ويعلو وجهه الاستبشار، ويحب لصاحبه ما يحبه لنفسه ولا يمنعه حبه إياه من أن يأخذ على يده فيكفه عن الظلم والإثم، وهو أحسن جار وإن آذاه جاره، ألوف موطأ الكنف، إذا سمع خبرًا عن شخص من الصلاح والزهد أو إتباع للسنة قاربه وأحب أن تكون له معرفة به.

وكان يفعل بيحيى بن معين صديقه وزميل حياته فوق ما يفعل بغيره من التواضع والتبجيل لأن يحيى يكبره بسبع سنين، لا يناديه باسمه ولكن يقول له يا أبا زكريا.

وهو يعود المرضى ممن يعرفهم ويمشي في الجنازات، ويصلي بالمسجد، فإذا اجتمع الناس حوله في الطريق وقف ليصدهم عن أن يسيروا وراءه.

فإذا غضب لسبب لم يكن كافر الغضب فهو يغضب لله لا للشيطان.

ولا يجهر بالسوء من القول. دعاه رجل إلى وليمة فأقعد معه من لم يشته أحمد أن يقعد معه فقال أحمد: رحم الله ابن سيرين فإنه قال: "لا تكرم أخاك بما يشق عليه"، ولكن أخي هذا أكرمني بما شق علي.

فإذا رأى ما يكرهه ند ونفر، كأن يجد في وليمة كرسيًا من فضة فيشمئز قلبه ويخرج وهو يردد: زي المجوس زي المجوس.

السلوك الرفيع:

لم يكن بالعراق إذ خلفه الشافعي. كما يقول. أفضل من أحمد بن حنبل، ومن الفضل جانب وثيق الصلات بالناس هو جلال السلوك وحسن الأسلوب. فهذه أدوات سريعة الوصول إليهم وإحداث التأثير فيهم. وأحمد بروحه العالية يعايش قومه بجسد كأنه روح، وبهذا استحبت أنفسهم أساليبه وألفهم وألفوه. وعندما يبلغ العالم درجة المحبة منه للناس والمحبة منهم له يثبت للناس قيمته ويجعل للعلم فائدة، يقول أبو عبيد القاسم ابن سلام في أساليب أحمد وسلوكه: "... أما تراه محببًا ألوفًا، مألوفًا، ما رأيت عيناي بأرض العراق رجلاً اجتمعت فيه خصال هي فيه".

وارتفاع أحمد من قمة الإعظام العام إلى قمة أعلى منها هي قمة الحب والألفة، إصعاد منه في طريق السنة الرفيع للاقتداء بالرسول وهو القائل – "إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، الموطأون أكنافًا الذين يألوفن ويؤلفون".

ولا مراء في أن أبا عبيد، وهو من كبار أئمة الحديث والبلاغة، قد اختار عبارات هذا الحديث ليصف بها زميله علي الشافعي.

وإذا كانت شهادة الشافعي لأحمد قد أدلى بها في ختام القرن الثاني للهجرة فإشادة أبي عبيد وقد عاش ربع قرن بعد رحيل الشافعي آية على إطراد السمو بإطراد أيام الحياة.

فإذا انتقلنا من الجوهر إلى الشكل بدهتنا ظاهرة الانسجام المعبر عن نفس في كمال الاعتدال، يتراءى في اللفتات الدقيقة والعبارات الرقيقة.

لا يسيل سيل البحر في كلامه ليغمر الأسماع، بل كل قول عنده بمقدار ومعنى. لا يتكلم إلا مجيبًا وله في الرسول أعظم الأسى، كان كلامه كما تقول أم المؤمنين عائشة: "لو عده عاد لأحصاه".

سمى تلميذ أحمد "إسحق بن بهلول" كتابًا له (كتاب الاختلاف) فقال أحمد: "سمه كتاب البيعة".. فذلك مبدأ بتمامه هو أن "اختلاف الفقهاء رحمة" بالأمة تضمنته كله في تعبير أحمد كلمة تحل محل كلمة.

وأحمد إمام في اللغة، كما أقر الشافعي له، فلا بدع في وجازة العبارات منه وعظم الدلالات منها. والبلاغة الإيجاز.

ومن ذلك يقول وكأن الشافعي – بإيجازه المعهود – هو الذي يقول: "أحب القراءات إلى نافع، فإن لم، فعاصم".

يقول – وكأنما يجمع الوجود في كلمات – "إن لكل شيء كرمًا وكرم القلب الرضا عن الله عز وجل". ومن الرضا عن الله صار رضا للناس في كل أمر، وفاض الكمال من الطبيعة والجوهر إلى الأسلوب أو المظهر، فتناقلته الحقب آيات في آداب السلوك، وهو كذلك في شتى مراحل حياته: من غلام يتورع عن الصغائر إلى تلميذ لا يتخطى الرقاب في الحلق، ويستأذن إذ يجلس ولا يتخطى، حتى إذا صار إمامًا يجلس إليه المئات والآلاف من أصحاب المحابر كان يجلس حيث ينتهي به المجلس، وإذا جلس لم يمد رجله، ويحيل السائل على من يحسن الجواب عن سؤاله.

ومن كرم القلب خفض الجناح وورع العبارة. لا يقول كلمة تملأ الفم أو تسيل الدم، والتقى ملجم، كما يقول عمر بن عبد العزيز. ومن قال للناس حسنًا فقد أعطى الناس بلسمًا.

والكلمة النابية أسبوبة، والكلمة الطيبة عطية، ذلك قوله عليه السلام: "اتقوا النار ولو بشق تمرة، ومن لم يجد فكلمة طيبة".

يسأل أحمد عن محمد بن معاوية – وهو معدود في الكذابين – فيقول: "نعم الرجل يحيى بن يحيى" وفي مدح البعض مندوحه عن القدح في الآخرين.

وإذا أراد القيام من المجلس قال لأصحابه: "إذا شئتم" وهو تعبير عصري له ترجمة حرفية في الفرنسية s'il vous plait سبق به أحمد حضارة الفرنسيين في القرن العشرين.

ولا يجيز لمن عثر على ورقة فيها أحاديث أن ينسخ منها إلا بإذن صاحبها، أدبًا من المستأذن وحفظًا لحلوق الآذن – وما هو إلا أدب خير البرية عليه الصلاة والسلام يقول: "من أطلع في كتاب أخيه بغير أمره فكأنما أطلع في النار".

Obeikandi.com

ويبدأ أحمد الكتاب باسم المرسل إليه فيقول: "إلى أبي جعفر (أحمد بن سعيد الدرامي ٢٥٢) من أحمد بن حنبل". فيؤخر نفسه ويقدم صاحبه.

* * *

وما أرهفه ذوقًا في كل القرون أن ينبه تلميذه المعطير على جرحه بين الجماهير، وهي صافة تصلي. سأله تلميذ: أتوضأ بماء الباقلا؟ قال ما أحب ذلك.. فاستطرد يسأل أتوضأ بماء الورد؟ قال ما أحب ذلك. فلما قدم تعلق أحمد بثوبه ونبهه بقوله: "إيش تقول إذا دخلت المسجد؟ إيش تقول إذا خرجت من المسجد؟" وسكت التلميذ.. واستطرد الشيخ يقول: "اذهب فتعلم هذا".

ويمر بهارون الحمال. فيراه يتفيأ الظلال وتلاميذه في الشمس تعود، فيمضي، ثم يرجع إليه في الليل ليخلصا نجيًا ويقول له: "جرت عليك وأنت قاعد تحدث الناس في الفيء وهم الشمس، وإذا قعدت فاقعد مع الناس".

ويسمو بالعطاء عن أن يكون نهبة أو استخفافًا بالناس أو بالنعمة أو ابتذالاً للتحية أو المحبة، فلا يجيز أن ينثر الجوز على الصبيان. وإنما يرى أن يقسم بينهم، ويرى النثر نهبة ويقول: "كان طلحة والزبير يكرهان النثر في كل شيء..." وهذان أسخى الأسخياء وأغنى الأغنياء.

وهو يحيى من يحييه بأسلوب عصري في كل عصر – فيجري على تحية العائدين من الحج ممن ودعوه إذ خرجوا، ويأمر بقيدهم في سجل فيقول لولديه: اكتبا من سلم علينا ممن خرج للحج، فإذا قدم سلمنا عليه.

ولا يعرف قلبه التعصب – سئل عن المسلم يقول للنصراني: أكرمك الله – فقال نعم... يقول: أكرمك الله وينوي بالإسلام. فأحمد يقرر تبادل التحيا بين المواطنين والدعاء لهم بالإكرام بالإسلام. فيفتح للكل أبواب الرجاء والدعاء والتواصل.

وهو من سماحة نفسه يهب الدنيا كلها أنسًا بالصديق ومروءة بين بني الدنيا. دعاه الكلواذي ويحيى بن معين وأبا خيثمة وجماعة على حلوى "لوزينج" أنفق عليه ثمانين درهمًا. قال أبو خيثمة هذا إسراف. ورد أحمد: "لا لو أن الدنيا جمعت حتى تكون في مقدار لقمة، ثم أخذها مسلم، ثم وضعها في فم أخيه المسلم، لما كان إسرافًا" (٣٠).

وهو يقول: "يوكل الطعام بثلاث، مع الإخوان بالسرور، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة".

والرسول يقول: "كل معروف صدقة ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق".

زار أبو عبيد القاسم بن سلام أحمد يومًا. قال: فأجلسني في صدر داره وجلس دوني. فقلت يا أبا عبد الله: أليس الرجل أحق بصدر بيته؟ قال: نعم يقعد ويقعد من يريد.

فقلت في نفسي: خذ لنفسك يا أبا عبيدة فائدة. ثم قلت له: يا أبا عبد الله لو كنت آتيك على نحو ما تستحق لأتيتك كل يوم. فقال: "لا تقل هذا، إن لي إخوانًا لا ألقاهم إلا في كل سنة مرة، أنا أوثق بمودتهم ممن ألقى كل يوم".

فقلت لنفسي هي فائدة أخرى، فلما أردت القيام قام معي فقلت لا تفعل يا أبا عبد الله. قال: قال الشعبي: من تمام زيارة الزائر أن تمشي معه إلى باب الدار وتأخذ بركاته.

قلت في نفسي هذه ثالثة ومشى معي إلى الباب وأخذ بركاتي.

---

(٣٠) اعتبار أبي خيثمة ثمن اللوزينج إسرافًا في وليمة ففيه كبير يحضرها إمام المسلمين وصحبه يظهرنا على تقدير الفقه حاجة العصر للتقشف حيث كان هذا اللون الذي يتهم صاحبه بالإسراف لونًا واحدًا من عشرة ألوان على مائدة خليفة معروف بالاعتدال في طعامه – الرشيد – (١) يبدأ بالمرق من السكباج وغيره تنشيطًا لجسمه (٢) ثم يأكل الفاتر من الطعام من البقول وأشباهها (٣) ثم الدجاج وأنواع الطير (٤) ثم الشواء (٥) ثم أنواع السمك (٦) ثم ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها حتى تكاد مائدته لا تخلو من السنبوسق وهي رقائق تحشى باللحم والدهن عليه التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تقلى بالزيت وتطوف بالخردل. وهو يتحلل طعامه (٧) باليسير من التوابل التي تشهيه إليه. فإذا اكتفى من طعامه تناول (٨) الحلوى من الأسوقة والربيكة و "اللوزينج" والفالوذج أو غيرها (٩) ثم الفاكهة بعدها (١٠) ثم النقل يتناوله للتعلل. فإذا انتهى من التعلل جاء الغلمان بماء الورد الممسك في قماقم الذهب مع شتى الدهان. فإذا فرغ من الغذاء دخل للقيلولة. وإذا فرغ من العشاء جلس للمغنين والندماء.

والأخذ بركاب الزائر فروسية أرق، وأرقى في التواضع، من أن يلبس المضيف ضيفه معطفه في باريس ولندره في أيامنا هذه عند وداعة.

وهو يقدم الأحداث من قريش ليخرجوا أمامه من المسجد فهو – حتى مع الأحداث يقدم قريشًا ولا يتقدمها، وفقًا للحديث.

* * *

وهو في أدبه العالي في إجلال أهله يكاد يستأذن عليهم إذا دخل من مسجده إلى بيته – فيضرب برجله قبل أن يدخل حتى يسمع خفق نعله وربما تنحنح ليعلم من في البيت بدخوله.

ولم يكن للذوق وحده أو للمظهر وحده، بل كان من الحفاظ على الكرامة الإنسانية أن يسأل عن رجل نذر أن يطوف على أربع فيقول: يطوف طوافين.. كأنه نظر إلى الانكباب فرآه مثله وخروجًا عن صورة الإنسان إلى الحيوان. فصان الإنسان والمسجد الحرام على المثلات. ولم يبطل حكم اللفظ بالمشي على اليدين فأبدلهما بالرجلين. وهما ألة المشي.

وتصاعد المجاملات فتعف عن الأذى أو شبهة الأذى بالصفات أو بالتسيمات سأل وافدًا من حران: ماذا فعل الرجل الذي عندكم بحران، الجوهري، عنده علم. قال المسئول: ما أعرف بحران جوهريًا يكتب عنه – فيقول أحمد: صاحب أبي معبد حفص ابن غيلان. فيقول الرجل: لا أعرفه. فيزيد أحمد كلمتين: "له بنون" فيدرك الرجل. فيقول ما لا يريد الإمام قوله: لعلك تريد البومة؟ قال أحمد: إياه أعني. اكتب عنه فإنه ثقة.

وهو لا يرضى أن ينادي الرجل باسم أمه فلأم كمال يصون اسمها عن الذكر بين أسماء الرجال، في كل مجال، وإن كانت الأم من شيبان. قال ليحيى بن معين: يا أبا زكريا إنك تقول إسماعيل بن علية.. قل إسماعيل بن إبراهيم فإنه بلغني أنه يكره أن ينسب إلى أمه. قال يحيى: قد قبلنا منك يا معلم الخير.

وإسماعيل (١٩٣) – وهو من أشياخ أحمد – كان عزوفًا عن المزاح. صحبه صاحب له إحدى وعشرين عامًا ولم يره ضاحكًا فيها. وكان يقول: من قال ابن علية فقد اغتابني، أما أمه عليه بنت حسان فمولاة لبني شيبان بالبصرة، نبيلة عاقلة برزة، تحادث فقهاء البصرة – تزوجت من إبراهيم بن مقسم وولدت له إسماعيل فنسب غليها وأقام بالبصرة ثم نزل بغداد.

والعبارات الكريمة لغة الكرماء، وهي كالتعبيرات الجليلة من خصائص الكبراء. سئل العباس – عم الرسول – أيهما أكبر، أنت أو النبي؟ فقال: هو أكبر وأنا ولدت قبله.

وكان ليحيى بن خالد وزير الرشيد مجالس مناظرات كمجالس الخليفة وكان القيم بها هشام بن الحكم وقد تعلم على الإمام جعفر الصادق. سئل: أشهد معاوية بدرًا؟ فأجاب: نعم. من ذلك الجانب (يقصد جانب المشركين).

وأحمد من أحيا الناس، حتى مع أصحابه. جاءته أموال من الخليفة وراح يفرقها حتى لا يستقر عنده شيء منها. فجاءه هارون المستملي فأعطاه مائتي درهم. قال لا يكفيني. قال أحمد: ليس ها هنا شيء ولكني أعمل بك شيئًا، أعطيك ثلثمائة درهم تفرقها، ويروي هارون الواقعة ويضيف: فلما أخذتها قلت: لا أعطي أحدًا منها شيئًا. فتبسم أحمد.

والحياء خير كله. وهو خلق المؤمن.

وأحمد لا يرى بأسًا بقبلة اليد إذا كانت على سبيل التدين، فقد قبل أبو عبيدة يد عمر. فإن كانت القبلة على سبيل الدنيا فلا، ولا يرى بأسًا بتقبيل يد الإمام العادل، ولقد رفض تقبيل يد ولي العهد إذ طلبوا إليه ذلك.

* * *

وهو من بواكير حياته يبلغ أمره باللطف لا بالعنف. دخل مع يحيى بن معين وأبي خثيمة دار خلف بن هشام البزار (٢٢٨) (٣١) يطلبون حديثه ففجأتهم بين يديه قنينة نبيذ. وأحمد هو القائل: "لو كان في الرجل مائة خصلة وكان يشرب الخمر محنها كلها".

ويصف خلف نفسه الموقف فيقول: وأقبل أحمد يسألني وحول ظهره إلى القنينة.. ولما أراد الانصراف – من بين القوم كلهم – سألته أي شيء تقول في هذا – يقصد قنينة النبيذ – يا أبا عبد الله؟ قال: ليس ذاك إليك. فقلت كيف؟ قال: قال النبي ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والرجل راع في منزله ومسئول عما فيه وليس للخارج أن يغير عن الداخل شيئًا".

ويضيف خلف: فلما خرج سكبت خابيتين وعاهدت الله على ألا أذوقه حتى أعرض على الله عز وجل (٣٢).

---

(٣١) كان خلف من كبار قراء عصره وله قراءة اختص بها – وكان من كبار المحدثين يبدأ في حلقته بأهل القرآن ثم يأذن لأصحاب الحديث. قيل فيه كان من أصحاب السنة لولا بلية أنه يشرب النبيذ على التأويل. وقد تتلمذ عليه عبد الله بن أحمد. ويروي عن خلف قوله أشكل على باب من النحو فأنفقت ثمانين ألف درهم حتى حذقته.

(٣٢) كان خلف يأخذ في الانتباذ مأخذ من يبيحه من العرافين كالشعبي والنخعي وأبي حنيفة وأن يوسف وإن لم ينتبذ منهم أحد. وبذلك وجدت القنينة والخابيتان عند خلف ووجه السؤال إلى أحمد. وهو كالشافعي ومالك ومحمد بن الحسن – وعلى رأيه الفتيا في مذهب ابي حنيفة – لا يبيحون الانتباذ. يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾ والمفسرون يحصون في الآية عشر دلائل على تحريم الخمر – والإجماع على تحريم المسكر المأخوذ من العنب أو التمر أو الخليط منهما إذا امتزجا وصارا مسكرًا. ونبيذ العسل والشعير والتين كلها حرام إذا وصلت إلى حد الإسكار قليلها مثل كثيرها. وكان بين العرافين خلاف في شأن الطلاء) وهو عنب يطبخ حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه، يسكر كثيره ولا يسكر قليلة. وفي شأن نبيذ التمر وهو ما يطبخ أدنى طبخ ويسكر كثيره لا قليله. وفي شأن نبيذ الشعير والحنطة والذرة ونحوهما إذا أسكر كثيره لا قليله.

وأبو حنيفة وأبو يوسف يقولان إن الذي يحرم هو كثير هذا لا قليله. وإن لم يعرف أن أحدًا منهما تناول هذا القليل. أما أحمد ومذاهب الأئمة الثلاثة الآخرين فيرون كثير هذا وقليله حرامًا كغيره.

والقليل الذي لا يسكر إن كان يؤخذ للهو والتسلية كما يفعل شارب الخمر لا للتداوي فهو حرام كالكثير تمامًا ولو كان قطرة واحدة. وشراب العصير من عنب ونحوه حلال بشرط ألا يشتد أو يتسبب في سكر. والخشاف قد يسمى نبيذًا وهو تمر وزبيب وما إلى ذلك مما يلقى في الماء ليحلو.

قالوا إن يحيى بن معين كان يبعث إليه ويقول: "حدث يا أبا محمد فأنت الثقة الصدوق".

وقالوا سئل أحمد عن خلف فقال: "هو والله الثقة الأمين – شرب أو لم يشرب".

وجواب أحمد لخلف وحسن تناوله للمسألة يمثلان أحمد بن حنبل كله، شخصه وعلمه، إذ تفجؤه الواقعة فيجيب، ويجيد، على البديهة، وتهدي طريقة جوابه إلى ما هو أقوم في مكان الاوقعة وزمانها مع الأدب الرفيع في حضرة الشيوخ. واصدق صور الرجال ما بصرت به الأعين عن طريق الفجاءة، كهيئة الصور تكون أشبه بالطبيعة، وأشكل بالأصل، إذا لم تعرض لها يد بتزويق.

لم يشهد أحمد أمارات سكر، والقنينة ذاتها لا تعالن الناظر إليها بخمر صراح، ولكن بشراب، ومن الشارب ما قد يباح.

والذين دخلوا يلتمسون العلم لا يهجمون على شيخهم بتأثيم، قد يكون الهجوم وليد وهم يتورع الفقيه عن البدار إليه.

ولما حول أحمد ظهره للقنينة كان يدير ظهره لشياطين الظنون، وينشر شعاعًا من الطمأنينة في مجلس الشيوخ وتلاميذه الساعين إليه. وهو منهم. حتى إذا أجاب أحمد عن السؤال الصريح تجلى رأيه بسكوته عن القنينة وما فيها ووقوفه عند تقرير مسئولية السائل عما يضعه في داره دون أن يصفه أو يستطرد إلى القدح في أمر خفي.. ورب صمت أبلغ من الكلام. وأحمد لا يكره الناس على رأيه بل هو كمثل إمام دار الهجرة يقول بالسنة لتقبل.

وهو إلى جمال طريقته يقدم الحقيقة على نحو ينحوه في أصول فقهه: هو أخذ الحكم مباشرة من النص.

وتوثيق أحمد لخلف شرب أو لم يشرب، سواء أكان هذا التوثيق قبل توبة خلف أم بعدها، مظهر لاحترام الاجتهاد والتسامح في الخلاف الفقهي واتساع الأفق في عدالة رواة الحديث – يقول ابن تيمية: "فأما من فعل محرمًا بتأويل فلا ترد روايته في ظاهر المذهب". ويقول حاتم الأصم: حادثت أحمد بن حنبل فيمن شرب النبيذ من أهل الكوفة وسميت له عددًا منهم فقال: "هذه زلات لهم، لا تسقط بزلاتهم عدالتهم". ولما أكرمت السماء الشيخ – وتلميذه معًا – فعدل إلى رأي جمهور أهل السنة، كانت تقدم الدليل على مقدار ما ينجح الرفق في الأمر كله. وعلى بلوغ الفقيه بنصوص السنة قصاراه في الفقه، وهو عمل الناس به من مخرجه وعلى عين قائله.

والتوفيق في العبارة كالتوفيق بالإشارة.

حكى المروزي: دخلت موضعًا وأبو عبد الله متكئ على يدي فاستقبلنا امرأة بيدها طنبور مكشوف فتناولته فكسرته وجعلت أدوسه وأبو بعد الله واقف منكس الرأس إلى الأرض. فلم يقل شيئًا لي. وانتشر الأمر.. فقال لي أبو عبد الله: ما علمت بهذا ولا علمت أنك كسرت طنبورًا بحضرتي إلى الساعة.

فلعل أحمد، إذ نكس رأسه لسبب أو لآخر، لم يرد واقعة فيستنكرها. أو لعله أراد أن يستنكرها بطريقة غير مباشرة، ومصادرة الطنبور وكسره عملان من أعمال السلطة لا يستقل بهما رجل عادي، وفي أمر يختلف فيه الفقه.

وقد رأينا أحمد إذ استنكر زي المجوس اكتفى بترك المكان.

وأحمد على كل حال يرى الغناء لا يقوم في جارية. سئل عن رجل مات وخلف ولدًا وجارية مغنية واحتاج الولد إلى بيعها فقال: تباع على أنها ساذجة [٣٣].

* * *

وكان عفوًا. لقد أحل المعتصم من ضربه ضرب التلف من فوره، بل عفا عن ابن أبي دؤاد الذي حرض على ضربه.

وذات يوم أرسل إليه الخليفة الرجل الذي بلغ أنه يخفي علويًا عنده ليقول فيه قوله. فعفا وقال: لعله يكون له صبيان يحزنهم قتله.

---

(٣٣) راجع في مشروعية الغناء مالك بن أنس للمؤلف ص ١٤٥ وما بعدها طبعة "دار المعارف".

وجاءه مغتاب يستحله فقال له: أنت في حل إن لم تعد – قالوا: يكف تحله وقد اغتابك؟ قال للمتشددين: ألم تروني قد اشترطت عليه ألا يعود؟ وإنما وكله إلى نفسه وعجل العفو عنه. فالعفو أقرب للتقوى. ثم أرجأه إلى المستقبل كيلا يلم بذنب. وأي هذا كان فهو خير.

كان مذ هو شاب يهاب المزاح، وهو في المجلس، رجال يهاب الحلفاء وجودهم في الدنيا. كيزيد بن هارون يمتنع المأمون عن القول بخلق القرآن في حياته، فيقول قائل ومن يزيد بن هارون هذا حتى يخافه أمير المؤمنين؟ فيجيبه: أخاف إن أظهرته أن يرد علي فتكون فتنة. وكان يزيد يمزح أحيانًا إلا أن يكون أحمد في الحلقة. لأن أحمد لم يكن يمزح– وذات يوم ندت من الشيخ مزحة فتنحنح أحمد فقال يزيد: ألا أخبرتمونا أن أحمد ها هنا حتى لا نمزح؟

وضحك التلاميذ من زميل في مجلس إسماعيل بن علية، وأحمد في المجلس، فقال إسماعيل: أتضحكون وعندي أحمد بن حنبل؟..

ولأحمد في ذلك أسوة بالسابقين. لقد ظفر أبو حنيفة بعمرو بن عبيد زعيم المعتزلة وهو يجادله فانتشى أبو حنيفة، وكان في فتاء السن، فضحك. فقال عمرو: يا فتى تتكلم في مسألة من مسائل العلم وتضحك! فلم يضحك بعدها أبو حنيفة.

ولقد حمل أحمد تبعات العلم من صغره كأبي حنيفة، وزادته انتكاسات العصر السياسية والاجتماعية إحساسًا بالتبعة، فلم يأذن بمزاح في مجلس العلم وإن كان طلق الوجه بشوشًا، أو كان يجيز أن تستعمر المعاريض. والجد لا يتعارض مع الوجه المسفر إذ يشرق في ملابسات السرور والانبساط.

وكان الرسول عليه السلام بسام العشيات هاشًا باشًا يستريح للفكاهة في مناسباتها.. يقول "روحوا القلب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت"، لكنه إذا مزح لم يقل إلا حقًا، ذلك هو المعنى الذي عناه سفيان بن عيينة يوم قال أمامه قائل: المزاح هجنة. فأجاب: بل سنة.

ومع ذلك يقول عمرو بن العاص فيه ﷺ: "وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصله ما أطلقت لأني لم أكن أملأ عيني منه".

صاحب الحديث من يعمل به:

في هذا العصر الذي تحرقه أفران عالية اللهب. وتفشو فيه الشرور وتشيع الشعوبية ويتراجع العرب، ويتكاثر الهجناء حتى ليكون منهم في حياة أحمد خمسة من خلفاء ثمانية،

obeikandi.com

ويؤمن السلاطين قليلاً بالدين وكثيرًا بالسلطة، ويلوي الكبراء رؤوسهم غلظة وكبرياء، ويتكاب العلماء على الدنيا كما يتكاب الجهلاء، أو أشد، لبث أحمد بن حنبل عمره بمنجاة من اللهب، يحتوي سأمه في صبر ورجاء، ويستعين ربه ليل نهار في جمع العلم وتفريقه في الأمة، وبيان طرق النجاة للحيارى من الكادحين والطهارى من العاملين بالدين، وفي طليعتهم تلاميذ المدارس الثلاثة التي أرست أساها على طرائقه الثلاثة في الزهد والحديث والفقه، مباعدًا بين نفسه وتلاميذه وبين المعارك المستعرة في ميادين الفقهاء والمحدثين كمثل ما يعترك أبطال الأساطير مع الهواء.

لقد كتب أعظم الكتب، وبخاصة كتب الأئمة الثلاثة الفقهاء، في القرن الذي رأى أحمد النور فيه. لكن الناس درسوا فقه المعاملات والأسرة والعبادات وطبقوه وتنازعوا عليه، أما الاهتداء في الدين أو الاقتداء بالأئمة في العمل به والبذل في سبيله فكان دأب الناس فيه أقل. وكان لزامًا أن يطلع على الناس إمام يبدأ دعوته بالعمل، ويضرب من نفسه المثل المحسوس الملموس، ليكون الناس أبصر وأسمع. ولئن تمنى أحمد أن يكون بشعب من الشعاب لا يعرف، فالشمس البازغة لا تطمس. والناس في بأسائهم، كالمشفى على الموت، يتشبث بدوائه، وسر القوة في الزهد أنه يخرج الزاهدين من جاذبية الأرض فيحوجها إليهم ولا يحوجهم إليها. وبه يرتفع المتواضعون فوق أصحاب الكبرياء كالجبال الشمخ.

وجواز المرور للرجل العظيم أن يجيء في إبانه فتعمل في خدمته قوى الطبيعة.

وكثيرًا ما تدين الشعوب لرجال أكثر مما يدينون لها، وقليل من هؤلاء يندبون أنفسهم للعمل للجماعة، والأقلون يهبون أنفسهم تمامها لله، فلا يسألونه أن يخفف أحمالهم، بل يبتهلون إليه أن يقوي ظهورهم ليحملوا المزيد، ومن هؤلاء أحمد بن نبل نذر للإصلاح نفسه وأنذر به عشيرته الأقربين. والمحدثون عشيرة إمام المحدثين. فهم المطالبون الأولون بالعمل بما يحملون من الحديث، ليسمع الناس إليهم إذ يحدثون. فيظهروا عندهم على السنة حقائق مطبقة ممن يدعون إليها. ولذلك يقول أحمد مقولته المعلمة "صاحب الحديث عندنا من يعمل به".

والذين لا يعملون به ممن ينتسبون إليه قد يكونون أضر بالناس ممن لا يحملونه..

وأحمد – كدأبه – يبدأ بنفسه.. كان يحمل ثلاث شعرات من شعر النبي عليه الصلاة والسلام آلت إليه من بعض ولد الفضل بن الربيع حاجب الرشيد فكانت لا تفارقه. وكأنها منبه دائم يدق مع دقات قلبه ليذكره بالسنة؛ فالسنة عنده هي الإسلام نفسه في "حالة عمل"، هو عمل الرسول ذاته بالرسالة في كمالها.

يقول عن نفسه: "لست أتكلم من كتاب أو من سنة أو عن الصحابة والتابعين، وأما غير ذلك فالكلام فيه غير محمود".

وإذا ذكرت السنة أمامه أو على لسانه فثمة أعلى درجات الورع. يقول يحيى بن أبي بكر (١٢٠) (السنة قاضية على الكتاب) لأنها تبين مشكله وتفصل مجمله. وهذه إحدى مسلمات الفقه. لكن أحمد يتورع عن هذا التعبير إذ يسأل عنه فيقول: "لا أجسر على هذا أن أقوله ولكن السنة تفسر الكتاب وتبينه".

ويقول لجملة الحديث: "من أراد الحديث خدمه، وخدمة الحديث أصعب من طلبه. قالوا ما خدمته؟ قال: النظر فيه" وإنما قصد بحثه وتأمله وفهمه والعمل به في الناس وتعليمهم إياه.

كان بشر الحافي زعيم الزاهدين ينادي الناس بأن يؤدوا زكاة الحديث بالعمل بربع العشر فيقول: "أدوا زكاة هذا الحديث. قالوا وما زكاته؟ قال: أن تعملوا بخمسة أحاديث من كل مائتين) وأحمد لا يرضى لنفسه بأقل من عمله بالمائتين كاملة.

والذي لا يحمل الحديث ولا يعمل به لا يحمل غير أسفاره. قال نجيد الترمذي: "كنت عند مالك وعنده محمد (الأمين) والمأمون يسمعان. فلما فرغا قال أحدهما يا أبا عبد الله: أتأمرني أن أكتبه بماء الذهب؟ قال: لا تكتبه بماء الذهب ولكن اعمل به".

ولو عمل الأمين بحديث الرسول لاستقام وأحل في الأرض السلام، ولو عمل به المأمون لكتب صفحات أجل في تاريخ الإسلام.

كان أبو القاسم بن منبع ممن خدموا أحمد ولزموه فطلب إليه أن يقدمه إلى بعض العلماء على أن أبا القاسم صاحب حديث، فكتب أحمد: هذا رجل ممن يكتب الحديث. قال أبو القاسم – كالمتوسل – لو كنت له هذا الرجل من أصحاب الحديث؟ قال: "صاحب الحديث عندنا من يستعمل الحديث".

* * *

وأحمد من ورعه لا يقبل الحديث إلا بإسناد. ويقول: "الإسناد من الدين". وأصبحت هذه الخطة في تلقي السنن معلومات عامة عنه.

يدخل عبد الرحمن المتطبب عليه يسأله: كيف تجدك؟ فيقول بخير – ويقول عبد الرحمن: إن أخاك بشرًا (الحافي) عليل وأسأله عن حاله فيبدأ بحمد الله ثم يخبرني فيقول أحمد: "سله عمن أخذ هذا"... ويقول بشر أبو عبد الله لا يريد الشيء إلا بإسناد.. عن ابن عون عن ابن سيرين. إن حمد الله العبد قبل الشكوى لم تكن شكوى وإنما أقول لك أجد كذا، أعرف قدرة الله في، فأصبح أحمد إذا سئل عن حاله وهو مريض يقول: أحمد الله إليك ثم يذكر ما يجد.

ويقتدي أحمد بالرسول في كل ما يصدر منه مع أن ما يصدر عن الرسول لا يعتبر كله مصدرًا للتشريع، بل مصدر التشريع هو ما يقصد به التبليغ والإفتاء وبيان الأحكام ولم يقم الدليل على اختصاصه به عليه السلام، أما ما يصدر عنه من الأعمال الجليلة باعتباره بشرًا – كالأكل والشراب أو عطائه عند الاحتجام – فلا يدخل في باب التشريع لخصوصه به ولا يجب فيه التأسي والاقتداء (٣٤). وليس تركه موجبًا لعقاب. لكن أحمد بن حنبل يوجب على نفسه فوق ما يجب.

---

(٣٤) هذا يدخل من بعيد في دائرة المندوب وهو ما طلب الشارع من المكلف فعله طلبًا غير حتمي واشتهر تعريفه بأنه ما لا يستحق تاركه العقوبة وقد يستحق العقاب ومنه السنة المؤكدة وهي ما لم يكن فرضًا ثم هاب عليه النبي ولم يتركه إلا مرة أو مرتين ليدل على أنه ليس فرضًا مثل المضمضة وقراءة سورة أو آية بعد الفاتحة. والسنة الزائدة أو النافلة ما لم يواظب عليه كالتطوعات وكصلاة ركعات فوق السنة المؤكدة. والمستحب أو الأدب أو الفضيلة أو المندرب الزائد ما عدا ذلك ومنه الأمور العادية التي تصير عن الرسول بصفته إنسانًا والاقتداء به فيها دليل حب وتعلق.

يقول: "ما حدثت حديثًا عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به حتى مر بي أن النبي احتجم فأعطى أبا طيبة دينارًا فأعطيت الحجام دينارًا حين أحتجمت" فهو يقيس أعمال حياته الواقعة بمقياس نبوي، وبهذا كانت حياته جهادًا دائمًا لبلوغ الكمال، وطالما دقت يده أبوابه.

يختفي تنفيذًا لأمر الخليفة، لكنه يتحول بعد ثلاثة أيام اقتداء بالرسول عليه السلام إذ اختفى وتحول.

وينفق في إحدى حجاته ثلاثين درهمًا أخذًا بسنة عمر إذ أنفق عمر في إحدى حجاته بضعة عشر درهمًا. ويكتب الكتاب إلى غيره فيكتب (إلى أبي فلان) معلنًا أنها أصوب من (لأبي فلان) ومحتجًا بأن النبي وعمر والصحابة كانوا يكتبون إلى أبي فلان.

والله تعالى يقول: ﴿محمد رسول الله والذين معه﴾. فهو تعالى يحبهم ويحب عملهم. وأحمد يقول: "إن أردت أن يدوم لك الله على ما تحب فدم على ما يجب".

هكذا عاش أحمد في عالم الحب النبوي بفكره، وبفعله، في كل أمر علمه، فأي عالم طهور كان عالمه! وأي ممثل للسنة في الأمة كانه!

من أجل ذلك يصفه زميله علي الشافعي أبو ثور فيقول: "كنت إذا رأيت أحمد بن حنبل خيل إليك أن الشريعة لوح بين عينيه"، ويضيف من فقهه، كالأصوليين، حجة الإجماع، فيقول: "لو أن رجلاً قال إن أحمد بن حنبل من أهل الجنة ما عنف على ذلك، ولو قصد إلى خراسان ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صالح، وكذلك لو قصد إلى الشام، وكذلك لو قصد إلى العراق. فهذا إجماع، ولو عنف على ذلك لبطل الإجماع".

* * *

يقول الزاهدون إن الورع أول الزهد، والزهد أول أبواب الآخرة، أما الطمع فأول الرغبة، والطمع باب من أبواب الدنيا. ويقولون: إن قليل الورع يكفي عن كثير من العلم – وأحمد لا يكفيه في الله أول الزهد بل هو فيه رجل نهايات. هيأت له السماء مزاجًا من أقوى عناصر القوة والسمو، مع الرحمة، ومع التواضع الكامل مع الاستعلاء على الجبابرة: فترى المأمون والمعتصم والواثق في دخائل أنفسهم أذلة بإزائه، وترى القاضي ابن أبي دؤاد يحاكم أحمد وكأن القاضي هو المتهم. في حين لا يرى أحد الفقير عزيزًا في مجلس عزته في مجلس أحمد.

يقوم له لجر من موضعه ليقعد فيقول له: "ارجع إلى موضعك" فيرجع الرجل إلى موضعه ويقعد أحمد بين يديه.

وإذا تأخر رجل عن الصف في الصلاة ليقدمه إجلالاً وضع أحمد يده فقدمه.

وإذا قام له رجل رآه خرج من داره قال أحمد: أما علمت قول الرسول ﷺ: "من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا فليتبوأ موضعه من النار"، ويقول الرجل: يا أبا عبد الله إنما قمت إليك لا لك، ويستحسن أحمد الرد، والرد جميل لموضوعه، فالرجل قد نهض للقائه حقًا – وجميل لشكله، فالبلاغة الإيجاز.

قال له أبو عثمان الشافعي – محمد بن الشافعي – لا يزال الناس بخير ما من الله عليهم ببقاءك – قال: لا تقل هذا يا أبا عثمان من أنا في الناس؟.

قيل له جزاك الله خيرًا عن الإسلام. فقال جزى الإسلام عني خيرًا – من أنا؟ وما أنا؟

ومن قبل أحمد قال عمر للذين أجابوه عن أسماء الشهداء، فعرفوا المعروفين له، وقالوا عن المجهولين: "... وآخرين من أفناء الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين" فأجاب، والعبرات آخذة بخناقة: "وما ضرهم ألا يعرفهم عمر، وقد أكرمهم الله بالشهادة! وما يصنعون بمعرفة عمر".

يقول يحيى بن معين عن أحمد: صحبناه خمسين سنة – ما افتخر علينا بشيء مما كان عليه من الصلاح والورع.

ولم يعظمه أحد إلا أخذته الخشية من الله وقال: أخشى أن يكون هذا استدراجًا! إنه يخاف قوله تعالى: ﴿ **سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ ويهاب قول الرسول عليه السلام: "من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب ذلة يوم القيامة.

قال له المروذي: ما أكثر الداعين لك. فتغرغرت عيناه وقال: أخشى أن يكون هذا استدراجًا، أسأل الله أن يجعلنا خيرًا مما تظنون ويغفر لنا ما لا تعلمون.

وفي البصرة – معقل بني شيبان – ينكر نفسه تنكيرًا. يسأله الرجل من أي العرب أنت؟ فيقول: "يا أبا النعمان نحن قوم مساكين"، ويظل الرجل يعيد السؤال كلما لقيه وهو يعيد الجواب حتى فصل من البصرة.

لقد عبر حدود التواضع المعهود إلى أبعاد جديدة بعيدة هي أبعاد الآخرة. ذكر له ابنه صالح رجلاً فقال أحمد "يا بني الفائز من فاز غدا – ولم يكن لأحد عنده تبعة".

* * *

وربما كان رأى العين والاشتراك في الخصائص أنجح في إجمال الصور. فلندع البيان لشهود العيان: يقول فيه بشر بن الحارث: "سئل سفيان الثوري عن الفتوة فقال: "الفتوة العقل والحياء.. ورأسها الحفاظ وزينتها الحلم والأدب وشرفها العلم والورع وحيلتها المحافظة على الصلوات وبر الوالدين وصلة الرحم، وبذل المعروف وحفظ الجار وترك التكبر ولزوم الجماعة والوقار وغض الطرف عن المحارم، وبذل السلام وبر الفتيان العقلاء الذين عقلوا عن الله تعالى أمره ونهيه، وصدق الحديث واجتناب الحلف والإيمان وإظهار المودة وإطلاق الوجه وإكرام الجليس والاتصالات للحديث وكتمان السر وستر العيوب وأداء الأمانة وترك الخيانة والوفاء بالعهد والصمت في المجالس من عي، والتواضع من غير حاجة وإجلال الكبير والرفق بالصغير، والرأفة والرحمة للمسلمين، والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، وكمال الفتوة خشية الله عز وجل. فينبغي للفتى أن تكون فيه هذه الخصال فإذا كان كذلك كان فتى بحق".

وكذلك كان أحمد بن حنبل لأنه جمع هذه الخصال كلها وكان يلبس إزارًا مفتولاً..".

فبشر يسرد على لسان سفيان فضائل القوة من هدي القرآن وسنة الرسول وقد كان عليه السلام كما وصفته أم المؤمنين عائشة "خلقه القرآن". وخلق الفقيه الصادق ثمرة العمل الصادق بهما.. وبهما تأدب سفيان. وأحمد من حداثته يذكر الناس بخصال سفيان. يقول شيخه عبد الرحمن بن مهدي: "ما نظرت إلى أحمد إلا تذكرت سفيان الثوري" ويسمى "أمير المؤمنين في الحديث" وفيه قول سفيان بن عيينة: "ما رأيت أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري".

وبشر بجمع سرد سفيان لعناصر الفتوة ويضيف إليه أن أحمد كان يلبس إزار مفتولاً، آية على التقشف والزهد.

وبشر نفسه في صدارة الزاهدين القشفين في عصره وراء أحمد مباشرة.

وهو يفتح أعيننا – بادئ الرأي – على امتياز أحمد بين أصحاب الفتوة الإسلامية بالتقشف والزهد. فيجعل له عليهم درجة.

* * *

كانت نظرية أحمد أن الإيمان قول وعمل، وأنه يزيد وينقص بزيادة الطاعات ونقصها. فأمسى الزمان كله عنده زمان عمل، يسأل عن أشياء في الفقه هل بدا له فيها رأي؟ فيجيب: "هذا زمان مبادرة، هذا زمان من عمل".

والحياة عند أهل الله كلها لله، لا تبدأ بالميلاد، وإنما تبدأ من يوم معرفة المرء دينه، حق المعرفة، بالعمل له.

والقول العمل فريضتان عمليتان تحميان إيمان القائم وتعصمانه، وهما دلالتان على صحة الاعتقاد، ومقياسان لمقداره، والناس يدخلون الجنة على دق رما يقومون به من فرائض ونوافل، وما يلتزمونه من حياء المؤمنين.

يقول عليه الصلاة والسلام: "الإيمان بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون شعبة أفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان".

وفيما بين أعلى الشعب وأدناها مراتب شتى من العمل، وإنما خص بالذكر شعبة الحياة بين هذه المراتب تنويهًا بمزاياها فالرسول يقول: "إن من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت". والذي لا يصنع في الدنيا إلا شيئًا يستحي منه أمام الله والناس، لا يصنع إلا خيرًا، بل لا يهم إلا بخير. يقول عليه السلام: "الحياء لا يأتي إلا بخير".

وأحمد لا يقف عند حد في الخير – بل يبتغي في كل صنيعه أن يبلغ رضى ربه. لا يكفيه أن يمتنع عما يستحي منه أمام الناس بل كان يأخذ فيما بينه وبين نفسه بعزائم الدين ولا يترخص.

وسبيل العلم مثل سبيل المال، في كل منهما حقوق للجماعة، والمال إذ يزداد تزداد زكاته، وأول حقوق العلم أن يتعهد به صاحبه نفسه، وأن يزداد عملاً به مع ازدياد حظه منه.

وبهذا بلغ أحمد شأوة في الأمة، وملك الأفئدة بما يملكها به المعلمون الملهمون إذ يدلون إلى الناس بالأسباب. فيأنسون إليهم. ولا ييأسون من التأسي بهم، ويفهمون أن ما يصنعه المعلم على أعينهم ممكن لهم أن يصنعوه.

ولقد طالما حرص على أن يعلن لناس بعمله وقوله أنه واحد منهم، سأله سائل كيف أكلك؟ كيف نومك؟ كيف جماعك؟ قال: لست بحصور ولا روحاني. أي أنه لا يمتنع مما يصنعه الناس مما يسأل عنه السائل.

obeikandi.com

مدرسة الزهاد في بغداد: [٣٥]

لقى أحمد ثلة من زهاد عصره تفرغوا للعبادة والتنطس في علم الآخرة ومنهم من تعلموا علوم الدنيا ومنها الفقه، أو العلم الظاهر كما يسميه المتصوفة في مقابل العلم الباطن الذي يسمون أصحابه أهل الحقيقة، ومن هؤلاء قوم تقشفوا واعتزلوا وساحوا في الأرض، ومع ذلك لم يكمل ابتلاؤهم، كمثل ابتلاء أحمد بن حنبل بالدنيا وما فيها من النقمة واحتمال التبعة والتعامل مع الناس وتعليمهم.

وشيخ الزاهدين في عصر أحمد هو معروف بن الفيرزان أو معروف الكرخي، وهو فارسي الأصل أسلم على يد إمام الشيعة علي بن موسى الرضي، ونسب إلى حي الكرخ ببغداد، وهو يعرف التصوف بأنه "الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الناس"، وكان أحمد ويحيى بن معين يجيئانه بين الفينة والفينة، أما سرى بن المغلس السقطي وبشر الخافي فمن مريديه.

ذكر معروف يومًا في مجلس فقال قائل: قصير العلم.. فقال أحمد: "أمسك، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف"؟

وسأله ابنه عبد الله أكان عند معروف حديث؟ فقال: كان عنده رأس الأمر كله: تقوى الله عز وجل.

ومن قبل أحمد قال إبراهيم بن أدهم: "من آنسة الله بقربه أعطاه العلم بغير طلب" [٣٦].

---

(٣٥) قيل إن الصوفية منسوبون لأهل الصفة وهو غير صحيح. وقيل إن صوفة (وهو الغوث بن أد) أبو حي من مضر ممن خدموا الكعبة في الجاهلية فنسب إليهم النساك وهو قول ضعيف وقيل نسبة إلى الصوف من تقشفهم ولبسهم الصوف والخيش من الثياب وهذا ما رجحه السابقون – ونحن نعلم الآن أن كلمة Sophia صوفيا اليونانية القديمة معناها الحكمة والإسم اليوناني للفلسفة (فيلوصوفيا) والفلاسفة هم أصدقاء الحكمة. وفلاسفة الإغريق طردوا من أثينا في عهد جوستنبان سنة ٥٦٥ للميلاد فآواهم كسرى أنو شروان، مؤسس مدرسة جند يسابور التي نقلت آثار اليونان إلى اللسان الفارسي ولم يلبث أن انتقا هذا التراث إلى العرب في عهد العباسيين. وكثير من التصوف متأثر بالتراث الهندي. فإذا كان هذا الاسم قد دخل في العربية من مصدر أجنبي فهو اسم دخيل. ولا يجيب عن مسألة الاسم نسبتهم إلى الصفاء أو قول القائل: (إن الصوفي صافى الله فصافاه) – أو كما يقول الشاعر الصوفي: صافي فصوفي حتى سمى الصوفي.

(٣٦) التصوف السني:

أصل التصوف كما يقول أبو القاسم إبراهيم بن محمد الاسترابادى (٣٣٦) ١- ملازمة الكتاب والسنة ٢- وترك الأهواء والبدع ٣- وترك ارتكاب الرخص والتأويلات. ويقول الجنيد (ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات).. والعزائم حق الله على العباد أما ما رخصه لهم فحظ للعباد من لطف الله بهم عند الحرج والمشقة، والصوفية يأخذون بالعزائم ولا يستعملون الرخص، ويسوون في حق أنفسهم بين الواجب والمندوب في التزام الفعل وبين المكروهات والمحرمات في التزام الترك، فيلزمون أنفسهم المندوب فوق الواجب ويحرمون على أنفسهم المكروه تحريما.

يقول قائلهم إذ يسأل عن الزكاه في ٢٠٠ درهم. (أما على مذهبنا فالكل، وأما على مذهبكم فخمسة دراهم) وسأل سائل الشبلي – أبا بكر بن جحدر (٣٣٤) كم في خمسين من الإبل. يقصد الزكاة. فسكت الشبلي. فأكثر السائل فأجاب: في الشرع شاه وفيما يلزم أمثالنا كلها. فسأله هل لك في هذا إمام فأجاب: أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث أخرج ما له كله. فقال النبي ﷺ ما خلفت لعيالك؟ قال: الله ورسوله.

يقولون إن القرآن أمر بمطلق إنفاق المال في طاعة الله وهذا هو الحتم. أما تحديد مقدار الإنفاق فعلى سبيل الخيرة. والنبي ﷺ نهى الناس عن وصل الصيام. أما هو فكان يواصل الصوم ويسرده حتى يقال لا يفطر، ويفطر حتى يقال لا يصوم.. ولذلك واصل بعض الصحابة الصوم مع النهي لأنهم فهموا أن النهي للرفق.

والمتواتر أن الصحابة تورعوا عن المباحات كثيرًا كترك الترف في الطعام والشراب والملبس والمركب. وأعرق الأمثال في ذلك عمر وأبو عبيدة وعلي وأبو ذر. وكثيرًا ما تصدقت عائشة بالمال العظيم الذي جاءها وأفطرت على أقل شيء.. ونزل عمر عن الفرس لما هلج به وعاد إلى الحمار الذي تركه نزولاً على مشورة صحبه.

وكثيرًا ما تشغل الرفاهة عن العبادة أو الخيرات.

ومر النبي عليه السلام بسعد وهو يتوضأ فقال له: لا تسرف في الماء. فقال سعد: وهل في الماء إسراف؟ قال: "وإن كنت على نهر جار". وسمع عليه السلام رجلاً يقول لا خير في الإسراف فقال: "لا إسراف في الخير" والغزالي الذي يرى التصوف استمدادًا مباشرًا من نور النبوة، يقول عن الزهد (الزهد عبارة عن انصراف النفس عن الشيء إلى ما هو خير منه... ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه).

وإذا كان المألوف أن الرفاء يشغل عن الذكر والعبادة فالزهد فيه عمل بالدين وطلب للآخرة.

يقول عليه السلام: (لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس) وفي ذلك يقول القائل: (إني لأجعل بيني وبين الحرام سترة من الحلال ولا أحرمها). ومن التقوى ترك محمد بن سيرين أربعين ألف درهم من شيء حاك في صدره لم يختلف العلماء في أن ليس به بأس ويقال إن هذا سبب الدين الذي حبس فيه. وقد يترك الحلال لأن نية صاحبه لا تصفو لتناوله وقد يكون الزاهد مأخوذًا بتمامه في العبادة من علم أو تفكر في الله فلا يستلذ المباح. ولقد رجع عليه الصلاة والسلام من غزاة له فقال لصحبه: "قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: "مجاهدة العبد هواه".

وترك النفس على هواها خطر. وقلما يتصور هجوم المرء على الكبيرة بغتة دون سوابق ولو حتى من جهة الصغائر. فالصغائر مع الإصرار كالكبائر. وهي كالشرر الذي يتضاعف فيحدث النار الكبيرة.

والقيام بالتكليف وحده مستحق الثواب – فإذا وقعت المشقة كان لها ثواب زائد عن ثواب التكليف. لكن المكلف لا يتعبد بالمشقة في التكليف لمجرد كونها مشقة بل هو يقصد العمل الذي يعظم أجره لعظم المشقة من حيث هو عمل وشاق. فالمشقة تتبع العبادة وليست العبادة تابعة لها. قالوا: كان أبو موسى الأشعري يتبع اليوم المعمعاني الشديد الحر فيصومه.

وليست المشقة هي المقصودة من التكليف بأية حال. وإنما المقصود هو المصلحة في التكليف كالشفاء المقصود في تناول الدواء. والتفريط ظاهر في تعاطي دواء بغير قصد الشفاء. وإحداث الأذى بالنفس منهي عنه – فإذا كان ثم أذى من مجرد القيام بالتكاليف فهناك الرخصة للمكلف. والرسول يقول (خلوا من الأعمال ما تطيقون)، و: (إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى)، ويقول: (هلك المتنطعون)، ويقول: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق)، و (ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)، والنهي عن التشديد صريح في الشريعة، موجود في كل مجال، حتى صار أمرًا قطعيًا. فقصد المكلف مجرد التشديد عملاً يخالف على نفسه دون تعبد مناف لقصد الشارع.

والصوفية يقولون لا خير في الدنيا إلا للآخرة.. وهم لا يجتزون عملاً يخالف السنة ومنهم أحمد بن أبي الحواري يقول: (من عمل بلا إتباع السنة فباطل عمله) وابن أبي الحواري وأبوه وابنه وأخوه من العارفين بالله من مدرسة أحمد.

وسئل أحمد عن رجل يتورع، عطشان وهو بين الناس لا يستقي، فأجاب: في الورع ما يكون أحمق.

وأهل السنة يقولون: (كل خارقة تحدث يتعين عرضها على أحكام الشريعة فإن ساءت قبلت).

ورياضة النفس على مخالفة أهوائها مبدأ في تطهير النفس فحواه أن ميل النفوس إلى بعض الأعمال هو من جملة مكايدها. ويبنون على ذلك في حالة تعارض الأعمال وتقديم بعضها على بعض تقديم مالا حظ للنفس فيه. ويسيرون في الطريق.. فلا ترى لهم عملاً إلا على مخالفة ميل النفس. وأرباب الأحوال يوغلون في خدمة المولى جل وعلا ويطرحون كل ما سواه.

وأتباع الرسول عند الصوفية جل وخفي فالجلي في القيام بالفرض والخفي باعتقاد القائم بالفرض أنه يجمع مع الله تعالى في أدائه. فأداء الصلاة دون اعتقاد الجمع مع الله والخشية والتفكير يكون اتباعًا ناقصًا، واللغو في الصوم نقص، والشكوى من قضاء الله نقص – ومن الجمع مع الله اصطحاب نعمه بالشكر وبليته بالصبر. ولقد اختلف في العزيمة والرخصة أيهما أفضل؟ فقيل إن الرخصة أفضل في حفظ النفس وفقهاء الحنابلة يثنون على الذين لا يستعملونها أو لا يكثرون استعمالها.

ولأحمد نص في الأسير يخير بين القتل وبين شرب الخمر قال: (إن صبر فله الشرف وإن لم يصبر فله الرخصة)، والقاضي أبو يعلي، من أئمة المذاهب يقارن بين عمار بن ياسر حين استعمال التقية والكفار يعذبونه، فنجا، وبين خبيب بن عدي حين رفض استعمال التقية وقتلوه، فيرى خبيبًا أفضل عند المسلمين من

قالوا: كان الشافعي إذا اشتبهت عليه مسألة لاختلاف الأقوال وتكافؤ الاستدلال رجع إلى العلماء من أهل المعرفة يسألهم. وإنه كان يجلس بين يدي الناسك البدوي كما يجلس الصبي في درس. فقيل له: مثلك في علمك ويقينك يجلس إلى هذا البدوي؟ فأجاب: إذن هذا وفق لما علمناه.

وهو درس تعلمه ابن سريج (٣١٦) التلميذ الفكري الكبير للشافعي.. تكلم يومًا في الأصول والفروع فراع سامعيه فأثنوا عليه فقال: هذا بكرة مجالستي لأبي القاسم الجنيد بن محمد – وكان شيخ المتصوفة في عصره.

تصدر أحمد بن حنبل وبشر الحافي والسري السقطي زهاد النصف الأول من القرن الثالث الهجري فتزعموا مدرسة التصوف في الزمان كله. يقول أبو بكر البطائحي عن أسس التصوف: "أوتاد العراق ثمانية معروف الكرخي وأحمد بن حنبل وبشر الحافي وسري السقطي..".

ويحدثنا الغزالي أنه قام بتحصيل علم الصوفية "من كتبهم مثل قوت القلوب لأني طالب المكي وكتب الحارس المحاسبي والمتفرقات المأثورة من الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم".

وأبو طالب المكي (٣٨٦) يخص أحمد في أجزاء قوت القلوب الأربعة بالمكانة العليا في أبواب الزهد والورع والعمل. ويعلم الناس بفتاوي أحمد في دق الفقه وجله وتطبيقاته في أمور الحياة الواقعة معاني التصوف كما يمارسها أهل السنة.

* * *

لم يكن أحمد يفكر في أن يعلم التصوف. بل كان تعلمي الحديث وفقه السنة همه، وهو يخص أبا حمزة محمد بن إبراهيم (٢٨٩) بلقب الصوفي من بين رواد الحلقة وفيها زهاد كبار

عمار، أما نجم الدين الطوفي فيقول: "العجب من أصحابنا! يرجحون الأخذ بالرخصة في الفطر وقصر الصلاة مع يسارة الخطيب ويرجحون العزيمة فيما يأتي على النفس كالإكراه على الكفر وشرب الخمر، فإما أن يرجحوا الرخصة مطلقًا أو العزيمة مطلقًا أما الفرق فلا يظهر له كبير فائدة".

والإقلال من تعاطي الرخص يسود الرجال – هذان صحابيان أخوان رجعا من أحد جريحين فسمعا مؤن الرسول يؤذن بالخروج في طلب للعدو فقال أحدهما لأخيه أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ فخرجا وكان أحدهما أيسر جرحًا من أخيه. فكان يحمله حتى انتهيا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

كابن أبي الحوري وآله ومحمد بن منصور بن داود وأبي الفتح شخرف وبدر المغازلي. فيروي أبو حمزة: كان الإمام أحمد يسألني في مجلسه عن مسائل ويقول ما تقول في هذا – يا صوفي؟ وأبو حمزة أول من تكلم في بغداد في مسائل صفاء الذكر وجمع الهمة والمحبة والشوق والقرب والأنس مما يحدث به المتصوفة. وأبو حمزة يعرض نظرية الصوفية في يسر فيقول: "من علم طريق الحق هان عليه سلوكها وهو الذي علمها بتعليم الله إياه.. أما من علمها بطريق الاستدلال فمرة يخطئ ومرة يصيب، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في أفعاله وأحواله وأقواله".

فالصوفية يمدون أسبابهم إلى أحمد بن حنبل في إمامته للسنة وفي الزهد، وأحمد يسقي كل المدارس رحيقًا لذا للشاربين.

والجند نجبة هذه المدرسة فيما بعد يقول: "علمنا هذا مشيد على الكتاب والسنة" ويقول ابن عطاء السكندري بعده بقربون عن شيخه أبي العباس المرسي: "لقد صحبت الشيخ اثنى عشر عامًا فما سمعت منه شيئًا ينكره ظاهر العلم".

والأئمة لا يقبلون من أحد شيئًا يخالف الشريعة وإن مشى على الماء.

وبهذا التحديد للتصوف السني نستطيع أن نميز المعارف التي نقلت إلى المسلمين فيما يسمى "بالتصوف الفلسفي" من الإغريق والفرس والهنود أو غيرهم – كالفلسفة تمامًا – فيها الفكر الإغريقي والمسيحي والأفلاطونية المحدثة والتراث الفارسي والهندي.

ولعل أبرز الزهاد في القرن الثالث في حياة أحمد بشر بن الحارث، الحافي وقد ذاعت أخباره في الناس لاعتزاله لهم، وتفقهه في الحديث، وزهده الكامل.

ولد لأب من الرؤساء وتعلم الحديث. ثم مشى حافيًا ليغبر قدميه عملاً بقول الرسول "من أغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما على النار". وكان زهده زهد كبار الفاقهين. يقول: وكأنما يعني نفسه "إذا ابتدأ الإنسان بالزهد ثم كتب الحديث فتر وإذا بدأ بكتب الحديث ثم تنسك نفذ".

وكان من النفاذ عنده بعد إذ تنسك، زهده في تعليم الناس ولو كان تعليم الحديث ذاته، مخافة أن تستشرف نفسه الظهور. يقول: "إني أشتهي أن أحدث ولو ذهبت عني شهوة الحديث لحدثت، أنا أجاهد نفسي من أربعين سنة" وفي عبارة مماثلة "أنا أشتهي.. أن أحدث وإذا اشتهيت شيئًا تركته". وأثر عنه قوله: إذا سمعت الرجل يقول: حدثنا وأخبرنا فكأنما يقول: أوسعوا لي"... ويقول، قاصدًا الجلوس لتعليم الحديث واستعماله أداة للرزق أو رثاء الناس أو ابتغاء السلطة

"الحديث ليس من زاد الآخرة". وهو القائل: "إذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا أعجبك الصمت فتكلم".

قال بعض أصحابه: "دفنا له بضعة عشر ما بين قمطر وقوصرة (خزانة – وعاء) كتبًا لم يحدث منها بشيء إلا ما سمع منه نادرًا". وإن كان يفتح كتبه في بعض الأحيان ويحدث الفتح الموصلي (٢٢٠) من زهاد الموصل العظماء، إذ يقبل الفتح ليسأله عن حديث فلا يضمن عليه بالبحث عنه في كتبه.

ولم يكن يقدر على الانقطاع الكامل فكان يخرج إلى ذا وإلى ذا.. قالوا: كان أحمد أصبر منه على الوحدة.

وكان أكل الحلال مشغلة بشر [٣٧].. يقول "إني لأشتهي شواء من أربعين سنة ما صفا لي مطعمه" ويقول: "أربعة رفعهم الله بطيب المطعم: إبراهيم بن أدهم ووهيب ابن الورد (١٥٤) – عبد الوهاب – ويوسف بن أسباط وسلم الخواص".

---

(٣٧) يتحصل زهد بشر والذين يؤثرون مثله العزلة في مقولات لبشر مثل:

- قليل في سنة خير من كثير مع بدعة، كيف يقل عمل مع التقوى.
- انظر خبزك أين هو وانظر مسكنك الذي تتقلب فيه كيف هو. وأقل معرفة الناس ولا تحب أن تحمد. وينبغي لنا ألا نحب هذه لدار لأنها دار يعصى الله فيها فوالله لو لم يكن منا إلا أننا أحببنا شيئًا أبغضه الله تعالى لكفانا.
- من أحب الدنيا تهيأ للذل.
- من أراد أن يسلم دينه ويستريح قلبه وبدنه ويقل غمه فليعتزل الناس لأن هذا زمان عزلة ووحدة.
- المتقلب في جوعه كالمتشحط في دمه في سبيل الله.

وبشر الذي يرضى الجوع لنفسه والانقطاع عن الناس يوصيهم بالعمل. عزى أحمد بن محمد بن خالد تلميذ ابن حنبل في وفاة والده بقوله (بر والدتك ولا تعصها. وألزم السوق فإنها من العافية. ولا تصحب من لا خير فيه) وذات يوم قام من المجلس فقال له رجل: أن والله أحبك. قال: فكيف لا تحبني ولست لي بجار ولا قرابة!

جاء رجل يودعه ويقول: قد عزمت على الحج – أتأمرني بشيء؟ قال كم أعددت للنفقة؟ قال ألفي دهرم. قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك؟ نزهة؟ أم اشتياقًا إلى البيت؟ أو ابتغاء مرضاة الله عز وجل؟ قال مرضاة الله. قال بشر فإن أحببت مرضاة الله وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله – أتفعل ذلك؟ قال: نعم. قال بشر: اذهب فأعطها عشرة أنفس: مدين يقضي بها دينه. وفقير يلم بها شعثه. ومعيل

ومع أن الحلال كان هم بشر فهو من إنسانيته يؤثر سخاء المرتكب على لؤم صاحب العلم.. يقول: "شاطر سخي أحب إلي من قارئ لئيم" وعقل بشر هو الذي يقول فيه إبراهيم الحربي: "لو قسم عقل بشر على أهل بغداد لصاروا عقلاء".

* * *

وسرى بن المغلس السقطي (٢٤٢) زميل أحمد على هشيم وأبي بكر بن عياش ويزيد ابن هارون طراز آخر من زهاد بغداد فهو زاهد تاجر وهو خال الجنيد (٢٩٧) ومعلمه.

والجنيد يرد أصول مدرسة التصوف كلها إلى البدريين عن طريق الحسن البصري فيقول: "أخذت عن أبي الحسن السري بن المغلس السقطي وأخذ السرى عن معروف الكرخي – وأخذ معروف عن فرقد السنجي وأخذ فرقد عن الحسن البصري ولقى الحسن سبعين من البدريين".

ويروي عن الجنيد كذلك: سمعت حسن البزار يقول: "كان أحمد بن حنبل ها هنا وبشر بن الحارث ها هنا وكنا نرجو أن يحفظنا الله بهما، ثم إنهما ماتا وبقى سري، فإني أرجو أن يحفظني الله بالسرى". فلقد عاش السرى بعد أحمد عشر سنين.

دعا معروف للسرى بقوله: بغض الله إليك الدنيا. فبلغت به البغضة أن قال وهو الذي يصل الآخرين بأموال: "إني لأشتهي.. الهندبا بالخل منذ ثماني عشرة سنة، وإني لأعجب ممن يتسع كي يطلق له العلم الاتساع". والسرى أول من تكلم في التوحيد على منهج الصوفية ببغداد وهو الذي يقول: "أقوى القوة أن تغلب نفسك".

زاره الجنيد وهو يجود بنفسه فبكى فسقطت دموعه على خده. فنظر إليه السرى فقال له الجنيد أوصني. قال السرى: "لا تصحب الأشرار ولا تنشغل عن الله بمجالسة الأخيار".

وكان السرى ينفق على الزاهدين من أرباح تجارته وكأنه كان يعمل فيها لهم!!

يعول بها عياله. ومربى يتيم بفرحه.. وإن قوى قلبك أن تعطيها لواحد فافعل. فإذن إدخالك السرور على قلب امرئ، وتغيث لهفان، وتكشف ضر محتاج، وتعين رجلاً ضعيف اليقين، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام. ثم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما في قلبك؟ قال الرجل – يا أبا نصر سفري أقوى في قلبي. فتبسم بشر وأقبل عليه وقال: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطر يشرع غليه فظاهرت أعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه ألا يقبل إلا عمل المتقين.

Obeikandi.com

وتواصل الجماعة طريق ذات اتجاهين هما الأخذ والعطاء، ومن النعمة على القادر أن تتاح له معونة المحتاج.

لم يكن بشر يقبل من الناس شيئًا فقال بعضهم أريد أن أعرف من أين يأكل فخبره من يخبر أمر بشر أن له صديقًا عاقلاً لم يكن يظهر أمره هو سرى بن المغلس السقطي.

والحق أن بشرًا كان يقول: "ما سألت أحدًا إلا سريا" وأحمد يقول إذا ذكر سرى: ذاك الشيخ الذي يعرف بطبيب الندى وتصفية القوت ونظافة الثوب وشدة الورع.

وكان سرى يوصل إلى أحمد شيئًا فيرده فقال له: يا أحمد احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ. فقال أحمد: أعد علي ما قلت. فأعاده. فشرح أحمد صدرًا بمقال سري وأجاب: ما رددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر. فإذا كان بعد شهر فأنفذه لي.

وظاهر أن أجر طرزه الشهري القليل كان يكفل قوته الأقل.

obeikandl.com

وأحمد يستعيد قول سري فيفتح قلبه ليستفيد. ولا يلقي القول الجديد بإصرار رجل تستعبده آراؤه. فتلك كبرياء على العلم والعلماء تباعد بين القلوب والمعرفة، وأحمد كله التواضع والسماحة، وهو عليم بقاعدة التضامن في المجتمع الإسلامي "ما المعطي عن سعة بأعظم أجرًا من الآخذ لو كان محتاجًا" ولذلك يقبل هدية سرى تكرمة لسرى ومؤالفة له. ويطبق المبدأ الإسلامي ويضبط حدوده بالحاجة الحالة لا المتوقعة. والهدية إن قبلت لدره حاجة متوقعة كانت فوق الكفاف وضد التوكل. وأحمد غني بدريهمانه وبالعمل بيده عندما يحتاج.

* * *

والعلم كالبر أخذ وعطاء. دق باب أحمد ذات يوم داق، وعليه أطمار شعر، فسأل أحمد: ما الزهد في الدنيا؟ قال الإمام: حدثنا.. أن الزهد في الدنيا قصر الأمل. قال الرجل: يا أبا عبد الله صفه لي – وكان الرجل قائمًا في الشمس والفيء بين يديه – قال أحمد: هو ألا تبلغ من الشمس إلى الفيء. فلما ذهب ليولى استوقفه أحمد ودخل فأخرج صرة فدفعها إليه فقال الرجل: يا أبا عبد الله – من لا يبلغ من الشمس إلا الفيء إيش يعمل بهذه؟ ومضى.

جاءت صرة إلى الفتح الموصلي فيها خمسون درهمًا ففتحها وأخذ منها درهمًا وردها بالباقي وقال: حدثنا عطاء أن النبي ﷺ قال: من أتاه رزق من غير مسألة فرده فإنما يرده على الله عز وجل. وذات يوم قصد فتح إلى منزل زاهد آخر فأمر أهله ففتحوا صندوقه فأخذ منه كيسًا فتحه وأخذ منه حاجته وأعلمت الجارية مولاها إذ رجع فقال: إن كنت صادقة فأنت حرة لوجه الله تعالى!

وفي يوم آخر طعم الفتح من طعام بشر ثم مضى وهو يحمل ما تبقى من طعام فقال بشر للحاضرين: أتدرون لم أخذ الباقي؟ أراكم أنه إذا صح التوكل لم يضر الحمل.

وكان الحسن البصري يقبل الهدية من أصحابه لا من الناس [٣٨].

---

(٣٨) قيل ليونس بن عبيد أتعرف أحدًا يعمل بعمل الحسن البصري؟ وقال والله لا أعرف واحدًا يقول بقوله فكيف يعمل بعمله؟ ثم وصفه فقال: "كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حيممه، وإذا جلس فكأنه أمر بضرب عنقه، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق الإله.

ولما دخل عليه داره محمد بن واسع (١٢٠) ومالك بن دينار فلم يجداه ورأى محمد طعامًا فأكل ولم يطعم مالك وقال: حتى يأذن لي صاحبه، جاء الحسن فأعجبه فعل محمد وقال هكذا كنا نفعل مع أصحاب رسول الله ﷺ حتى جئتنا يا موبلك.!

ويقول علي بن الحسين (زين العابدين) هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد؟ قالوا: لا. قال: فلستم بإخوان [٣٩].

ومن حدة الجماعة الإسلامية كانت النصوص التي تقرر حق المحتاج وعطاء السائل، ولم يزل السؤال يسمون السؤال بلا معابة – فهذا أدخل في معنى المطالبة بحق – حتى أدخل خالد بن برمك على الحقيقة أناقة فسماهم الزوار. والمعطي عن سعة يؤدي حقوقًا لمستحقين. ومن الفقهاء من لا يرى إسداء الشكر إلا إذا أدى المعطي الحقوق في إقبال.

يقول الثوري لا تشكر إلا من عرف موضع الشكر، قيل وكيف ذاك؟ قال: إذا أوليتك معروفًا فكنت به أسر منك وكنت منك أشد استحياء فاشكر وإلا فلا.

ويقول عليه السلام "إن الله يحب السهل الطلق الوجه" فطلاقة الوجه إحسان للعطاء وللأخذ جميعًا.

هؤلاء هم الفروع السامقة في القرن الثاني من شجرة الزهد بالعراق، والشيخة فيها أم الخير رابعة العدوية (١٣٥) تقول: "اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم"، وتقول "ما ظهر من أعمالي لا أعده شيئًا" وتقول في المناجاة: إلهي أتحرق بالنار قلبًا يحبك؟

أحبك حبين حب الهوى ... وحبًا لأنك أهل لذاكا

---

(٣٩) ولم يكن سعيد بن أبي عروبة (١٥٠) يعرض على إخوانه الطعام، بل كان يعرض لهم به فالسم مسلوخ والخبز موجود ظاهر. ولكل من دخل أن يصنع ما يشاء. يشوي من المسلوخ أو يطبخ ويأكل من الخبز ما شاء بما شاء من الأدم. وكذلك الثياب. جميع ما في ملكه معلق ظاهر ولكل من دخل أن يلبس من الثياب ما شاء ويخرج.

خطبها محمد بن سليمان أمير البصرة على مائة ألف وقال: لي غلة عشرة آلاف في الشهر أدفعها إليك. فكتبت إليه تقول: ما يسرني أنك عبد لي، وأن كل ما تملكه لي، وأنك شغلتني عن الله طرفة عين.

وهي التي تقول لسفيان الثوري نفسه: نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا.

ولما قال سفيان أمامها "اللهم ارض عنا" قالت: كيف يرضى عنك وأنت غير راض عنه؟

قال: استغفر الله.

قالوا لها: متى يكون العبد راضيًا عن الله تعالى قالت إذا كانت سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة؟

* * *

والاعتزال المطلق للناس أقل جدوى على الذات، وعليها واجبات. وعلى الناس، ولهم حقوق. والكاسبون للرزق والعلم كالمنفقين لهما يؤدون بعض الواجب، والعلماء مصابيح مضيئة ونواقيس ذات رنين، ينكرها الاعتزال، ولقد تناهى إلى الأسماع همسات معتزل في قوصرة فلا تنقل أثره أو خبره أو تنقل ما يشبه الوشوشة، لكن الناس أسمع أبصر بالزاهدين بين ظهرانيهم، مثلاً صالحة وإجابات واضحة عن المسائل التي يعالجونها، وبراهين على أن الحياة التي يحياها الناس العاديون تصلح بالزهد والعمل، لا بالجامين الرواء، أو المتضلعين شبعًا، أو العازفين عن الناس.

كان أحمد حدثًا لم يكد يطر شاربه بعد، إذ جلس إلى قاضي القضاة فحفظ على نفسه توازنها وكره الاستشراف للوظائف وآثر الكدح للعلم. فلما نيف على العشرين علمه الشافعي أن الطاعة والمعصية جاران، وأن القعود لا يقي السوء، وإنما العدل في "العمل" الذي تزيد حسناته على سيئاته قال: "ما أحد من المسلمين يطيع الله عز وجل حتى لا يعصيه، ولا أحد يعصى الله عز وجل حتى لا يعطيه، فمن كانت طاعته أكثر من معاصيه فهو العدل" كما علمه الاعتدال إذ قال: "الانقباض عن الناس مكسبه لعداوتهم والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين الانقباض والانبساط" فكان بين ذلك قوامًا. لم يمل إلى رهبنة أو شبهها، ولم يقصد الحياة الصاخبة، وإنما خال الناس ليخدمهم والذي لا صلة، له بالناس لا يقدر على التأثير فيهم.

ولا يضر التكسب زاهدًا صح توكله، والعمل للرزق امتحان شديد تضؤول دونه كل شجون أصحاب الخلوة والانقطاع خلاصًا بالنفس من متاعب الناس، أو تعبدًا في ظروف مواتية، ومن أجل ذلك فضل التاجر الصدوق على المتفرغ للعبادة لأنه يمتحن في كل بيعة. يأتيه الشيطان من قبل السعر والمكيال والميزان وسواها، فلا يستسلم لوسوسته: بل يزن بالقسطاس ولا يسحت. ولا يبخس الناس أشياءهم وأبو حنيفة، وسري، آيتان ناصعتان على جلال الزهد في دنيا التجارة.

وتعليم العلم عبادة من أعلى الدرجات. والفقه بالعبادات والمعاملات غرض أول للشريعة. لما فيه من كمال العبادة وابتغاء السلامة في الآخرة بالمعايش والأرزاق الكريمة. ولا فصال بين أداء أعظم الرسالات وهي النبوة، أو بين الفرائض والمندوبات والمباحث للعيش الكريم في الحياة الدنيا، وبين الزهد [٤٠].

تقول أم المؤمنين عائشة "ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شئنا لشبعنا، ولكن كنا نؤثر على أنفسنا".

ويقول أبو الدرداء "لا تكون عالمًا حتى تكون بالعلم عاملاً، إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لي قد علمت فماذا عملت؟ ويل للذي لا يعلم مرة وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات" وأول العمل بالعلم طاعة الله به وتعليمه.

والمعلمون لا يجمعون العلم أو يوزعونه فارين إلى صيامهم أو قارين في صوامعهم بل هم الخلطاء والعشراء لمن يعاملونهم تتفصد جباههم عرقًا وهم بين أظهرهم، ولما رض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة، فرض التعليم على من يعلمونهم.

---

(٤٠) قالت أم المؤمنين حفصة لابنها لما فتحت عليه الفتوح: البس الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر فقال لها: هل تعلمين أن رسول الله لم يشبع ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية.. ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة؟.. هل تعلمين أن رسول الله قربتم إليه طعامًا على مائدة فيها ارتفاع فشق عليه ذلك حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض؟ .. إن رسول الله كان ينام على على عباءة مثنية، فثنيت له، ليلة، أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال: منعتموني قيام الليل بهذه العباءة أثنوها اثنين كما كنتم تثنونها..

فما زال حتى أبكاها، وبكى عمر وانتحب. أحمد بن حنبل.

والعالم الذي لا يعلم الناس كالعابد المقتصر على العبادة يختص فالفضل نفسه وينسى الناس. وإنما أراد النبي عليه الصلاة والسلام الحض على نشر العلم في الناس عندما قال: (لفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. إن العلماء ورثة الأنبياء.. إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر) ولما نص على ليلة البدر أراد كمال النور وانتشار المعرفة.

فزهد أحمد زهد إيجابي لرجل أعدته السماء ليكون معلمًا للإنسانية بالخلق الإيجابي الذي يتخطى الحواجز، ويخوض المحن، ويسلم من الإغراء، ولا يهاب السلاطين، لتكون كلمة الله هي العليا: زهد الواجد الذي يعرض له امتحان بعد امتحان قدر ما يعيش من ساعات الحياة وقدر ما يلقى من ناس ويتعامل في أشياء.

وتعليم الأمة كالمرابطة بالثغور للدفاع عنها، ولقد طالما رابط الفقهاء الفحول وجاهدوا: الأوزاعي بالشام، والشافعي بالإسكندرية، وأحمد في طرسوس، وابن تيمية في الدفاع عن سورية، والعز بن عبد السلام بين الصفوف في دمياط، أما ابن المبارك ففيه يقول الحسن بن الربيع: "في حرب الروم خرج فارس ملثم فقتل فارسًا من الروم كان قد فعل الأفاعيل بالمسلمين ثم دخل الفارس في غمار الناس فاختفى فتبعته حتى عرفته فقلت له: لماذا أخفيت نفسك مع هذا الفتح العظيم للمسلمين! قال: الذي فعلت ذلك له لا يخفى عليه".

ورابط الزهاد الأئمة كالسرى السقطي وإبراهيم بن أدهم [٤١] ويوسف بن أسباط [٤٢].

وعندما يسأل أحمد عن المرابطة بالثغور للدفاع عن الإسلام وهل هي أفضل من المقام بمكة؟ يجيب: أي والله. والرسول يقول "رباط يوم خير من صيام شهر وقيامه". ويقرن المرابطة بالتعليم في عالم الخلد فيقول "أربعة يجري عليهم أجورهم بعد الموت: المرابطة في سبيل الله،

---

(٤١) كان من أبناء الملوك بخراسان، ثم ترك الدنيا والأموال وتزهد وكان إذا رأيته كأنه ليس فيه روح ولو نفخته الريح لوقع. وصحبه شفيق بن إبراهيم البلخي وهو أول من تكلم في التصوف بخراسان وكان له دنيا واسعة تركها وتزهد وهو شيخ حاتم، صاحب أحمد، عن كبار الزاهدين.

(٤٢) توفي سنة ١٩٠ وليس على جسمه أوقية لحم – وكان يعمل الخوص ويتقوت. ولما مرض جاءه بطبيب الخليفة وهو لا يعلم. فلما علم سأل ما عادته (مقابل الزيارة) قالوا دينار. قال أعطوه هذه أنصره. ففتحوها فإذا فيها خمسة عشر دينارًا. قال أعطوه إياها لئلا يعتقد أن الخليفة أكثر مروءة من الفقراء.

ومن علم علمًا أجرى له ما عمل به ورجل تصدق بصدقة فأجره يجري ما جرت، ورجل ترك أولاً صغارًا فهم يدعون له".

فضول الدنيا:

قضى أحمد حياته وعيشه كفاف، وشبعه رغيف، أو لقيمات، يقمن صلبه، كأنما يأكل من الحلال أكل المضطر، أو رسم له شيخه وكيع بن الجراح نهج حياته حين قال: الزهد لا يكون إلا في الحلال، والحلال قد نفذ. فأنزل الدنيا منزلة الميتة وخذ منها ما يقيمك، فإن كانت حلالاً زهدت فيها وإن كانت حرامًا كنت قد أخذت منها ما يقيمك لأنه هو الذي يحل لك منها وإن كانت شبهات كان حسابها يسيرًا.

وكان ﷺ يقول: "طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع" (٤٣).

أتى قباء فجاءوه بشربة لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال:

"شربتان في شربة، وإدامان في قدح، لا حاجة لي فيه، أما أني لا أزعم أنه حرام ولكن أكره أن يسألني الله عن فضول الدنيا يوم القيامة".

وبشر يقول: "كل الدنيا فضول إلا خمس خصال: خبز يشبع المرء وماء يرويه وثوب يستره وبيت يسكنه وعلم يستعمله"، وكان طعامه خبزًا قفارًا وهو القائل: إني أذكر العافية فأجعلها إدامًا.

أما أحمد فطعامه أقرب إلى طعام الناس من طعام بشر. فهو كثيرًا ما يأتدم بالخل (٤٤).

---

(٤٣) ويقول عليه السلام: (من أصبح منكم معافى في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بما فيها).

وتقول أم المؤمنين عائشة: (لم يمتلئ قط شبعًا وربما بكيت رحمة مما أرى من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: "يا عائشة إخواني أولو العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني أستحي إن ترفهت معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم فالصبر أيامًا يسيرة أحب إلي من أن ينقص حظي في الآخرة وما من شيء أحب إلي غدا من اللحوق بأصحابي وإخواني).

(٤٤) أسند علي بن بندار الصيرفي عن أم المؤمنين عائشة: نعم الإدام الخل.

ويشتري بدرهم شحمًا، فيأكل منه شهرًا، فإذا تيسر الأمر فهو قد يشتري بطيخة فيأكلها بخبز أو يشتري عنبًا أو تمرًا. وربما أخذ الكسر فصرها في قصعة وصب عليها الماء وأضاف إليها الملح وأكل.

وكان هدي الرسول عليه السلام في طعامه كهديه في لباسه أكل ما تيسر، لا يرد موجودًا ولا يتكلف مفقودًا. وما قرب إليه شيء من الطعام إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه، من غير تحريم، ولم يكن يرد طبيبًا ولا يتكلفه. إن أعوز صبر، حتى ليربط على بطنه الحجر من الجوع، يرى الهلال وراء الهلال وما يوقد في بيته نار.

يقول ابن مسعود: دخلت على رسول الله ﷺ وقد نام على رُمال حصير وقد أثر في جنبه فقلت يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه؟ فقال: "مالي وللدنيا ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها".

ولما رجع أحمد من ضيافة الخليفة جعل لا يأكل الدسم وكأنما عافته نفسه منذ كان يراه ولا يرى سواه.

وكان يحمد الله وهو يتناول طعامه وفي ذلك قوله: "أكل وحمد خير من أكل وصمت" تبعًا للسنة إذ كان الرسول إذا شرب يشكر الله بقوله: "الحمد لله الذي جعله عذبًا فراتًا برحمته ولم يجعله ملحًا أجاجًا بنفوسنا".

وكانت قوة أحمد في جوعه أعظم منها لو شبع. وقوة النفس تهب قوة الفكر، وقد تهب قوة البدن.

يقول أحمد لأبي بكر المرزوي: ما أعدل بالفقر شيئًا، إني أفرح إذا لم يكن عندي شيء.

يقول: أتدري الصبر على الفقر أي شيء هو؟ وقد رأيت قومًا من الصالحين، لقد رأيت عبد الله بن إدريس وعليه جبة لبود وقد أتى عليها السنون والدهور، ولقد رأيت أبا داود الجعفري وعليه جبة ممزقة قد خرج القطن منها، يصلي بين المغرب والعشاء. وهو يترجح من الجوع، وقد رأيت أيوب بن النجار بمكة وقد خرج مما كان فيه ومعه رشاء يستقي به بمكة وكان من العابدين، وكان في دنيا وتركها بين يدي يحيى القطان. وقد رأيت ابن بجالة وكنت أسمع خفه في الطواف بالليل ولقد كان بالمسجد رجل يقال له (العرفي) يقوم من أول الليل إلى الصباح يبكي. فاشتهيت النظر إليه فإذا هو شاب مصفر. ولقد رأيت حسنًا الجعفي وكان يشبه الراهب. ما رأيت بالكوفة أفضل من حسين الجعفي وسعد بن عامر بالبصرة.

ويبلغ أحمد بزهده في الطعام بعض غرضه ويقدم للناس وللسلطان بعض مواعظه يوم يرى الأمير طعامه – رغيفين وخيارة – فيقول الأمير هذا لا يحيينا إذا كان هذا يشبعه.

* * *

وأحمد في زهده متبع، وأصله في الزهد كأصله في الفقه وفي الفكر: عمل الرسول وصحبه.

دخل داخل على أبي عبيدة بن الجراح القائد العام لجيوش الشام فوجده يبكي فلما سئل قال: يبكيني أن رسول الله ﷺ ذكر يومًا يفتح الله على المسلمين حتى ذكر الشام فقال: إن نسأ الله في أجلك فحسبك من الخدم ثلاثة خادم يخدمك وخادم يسافر معك وخادم يخدم أهلك. وحسبك من الدواب ثلاثة دابة لرحلك ودابة لثقلك ودابة لغلامك – ثم هأنذا أنظر إلى بيتي قد امتلأ رقيقًا، وإلى مربطي قد امتلأ خيلاً، فكيف ألقى رسول الله ﷺ بعدها. وقد أوصانا "إن أحبكم إلي وأقربكم مني من لقيني على مثل الحال التي فارقتكم عليها".

وأتى عبد الرحمن بن عوف بطعام يومًا – فجعل يبكي ويقول: قتل حمزة فلم يجد ما يكفن فيه إلا ثوبًا واحدًا. وقتل مصعب بن عمير فلم يوجد ما يكفن فيه إلا ثوبًا واحدًا ولقد خشيت أن يكون عجلت لنا طيباتنا في حياة الدنيا [٤٥].

---

(٤٥) قال عليه الصلاة والسلام لصحبه أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قال يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه وقال: (فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر).

ويقول عليه الصلاة والسلام: (ما نقصت صدقة من مال).

ونحن إذ نعطي قليلاً نأخذ في الدنيا كثيرًا، من النعم التي لا تحصيها عد مثل الشفاء من الشح الناجم عن الثقة في النفس. وإحسان السعي، والتواصل بين أفراد الجماعة، واستغناء الفقراء، وطرح الأموال للتداول. وأما من استبقى المال فهو يستبقيه لغيره. والقيم المادية تتضاءل بالإنفاق وتنقصها الشركة في حين تتكاثر القيم المعنوية بالإنفاق وتتضاعف بالشركة.

وكان من الصحابة الدائبون على أنواع الاكتسابات لا ليدخروا أو يكنزوا وإنما ينفقوا في سبيل ومكارم الأخلاق.. بل قد كانوا في أموالهم كالولاة على بيوت الأموال. يحرسون حقوقًا عندهم للناس وهي في ذلك درجات ومنهم عبد الرحمن بن عوف أحد الثمانية السابقين إلى الإسلامي والعشرة المبشرين بالجنة والستة أصحاب الشورى أصيب في (أحد) فهتم وجرح عشرين جراحة بعضها في رجله فعرج.

ولما بعث عمر حذيفة بن اليمان على المدائن قالت رعية حذيفة له: سل ما شئت فسأل طعامًا يأكله وعلف حماره، من تبن، ما دام فيهم. وأقام فيهم زمانًا ثم كتب إليه عمر ليقدم وكمن عمر ليرى صاحبه في مقدمه فلما رآه على الحال التي خرج عليها أتاه فالتزمه وقال أنت أخي وأنا أخوك.

وكما يشهد عمر لحذيفة يشهد حذيفة لعمر: أنه أقبل على الناس وبين أيديهم القصاع فدعاه عمر إلى الطعام وعنده خبز غليظ وزيت فقال حذيفة: أمنعتني أن آكل الخبز واللحم ودعوتني على هذا؟ قال عمر: إنما دعوتك على طعامي أما ذلك فطعام المسلمين.

وعمر يرفه عن المسلمين ويراقب ولاته في ترفيههم عن المسلمين.

كتب إليه أبو عبيدة أنه لا يريد الإقامة في حلب لطيب هوائها ووفرة خيراتها مخافة أن يخلد الجند إلى الراحة والسكينة، فلا ينتفع بهم بعدها. فأجابه "إن الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات. فقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾ وكان يجب أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون الأبدان المضنية في قتال من كفر بالله...".

أعتق في يوم واحد ثلاثين عبدًا، ويروي الزهدي أنه تصدق في عهد الرسول بشطر ماله، النصف، أربعة آلاف دينار وتتابعت زيادة الإنفاق بزيادة الكسب أربعين ألفًا ثم أربعين ألفًا ثم خمسمائة قرش ثم خمسمائة جمل. ومن وصاياه أوصى لكل من شهد "بدرًا" بأربعمائة دينار فأخذوها.

وكان علي يربط على بطنه من الجوع في حين يتصدق بأربعة آلاف دينار في اليوم، ومات وهو أمير المؤمنين وليس عنده إلا دراهم أعدها ليشتري بها خادمًا.

يقول عبادة بن الصامت للمقوقس أمير مصر وهو يفاوضه باسم المسلمين عند أسوار بابليون: (... وما يسأل أحدنا أكان له قناطير من ذهب أما كان لا يملك إلا درهمًا، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليله ونهاره، وشمله يلتحفها. وإن كان لا يملك إلا ذلك كفاه.. وإن كان يملك قنطارًا من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى). فيقول المقوقس لمن حوله: (إن هذا وأصحابه.. ما أظن ملكهم إلا سيتغلب على الأرض كلها).

ولما أرسل عمر إلى أم المؤمنين زينب جحش حقوقها – وكانت أطول الناس يدًا بالصدقات. صناعًا تذيع وتخرز... وتتصدق – وزعت المال الذي بعث عمر في الناس وقالت اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا واستجابت لها السماء بالموت.

أما الولاة فليس لهم عند عمر إلا حق المتعة والنعمة التي ترضاها الرجولة: يلومهم على التقصير كما يلومهم على الإسراف.

أنكر على عامله في اليمن حللاً مشهرة ودهونًا معطرة، ولما عاد إليه في العام التالي أشعث أغبر قال له: لا ولا كل هذا. إن عاملنا ليس بالشعث ولا بالعافي كلوا واشربوا وادهنوا... إنكم ستعلمون الذي أكره منكم.

ولم يكن يأخذ الناس بمحاكاته. فالفاروق نسيج وحده. كانت نفسه تشتهي الشهوة وثمنها درهم فيؤخرها سنة ليقهرها، قال مرة وهو أمير المؤمنين "لولا خوفي الحساب لأمرت بكبش يشوى لنا في التنور".

وكان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل في بيته فيأكل الخل والزيت. ويركب فيردف غلامه خلفه، وهو خليفة. ويراه الحسن البصري نائمًا في المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجيء الرجل فيجلس إليه كأنه أحدهم.

وأحمد بن حنبل تلميذ عظيم في هذه المدرسة، وشعارها الزهد والعمل والتوكل، يعرف التوكل بأنه: "قطع الاستشراف باليأس مما في أيدي الناس"، ويعتمد على الله وحده ولا يضيق بيومه ولا يخاف غده ولا تسهر عينه في أمور تكون أو لا تكون، أو تقع وفق ما يحذره الناس أو ما لا يتوقعون. فعسى أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده. والمستقبل في يد الله، أما الماضي فقدم صدق لمن صبر وأتقى، وأما الحاضر، وما يعاني المرء منه، فليس إلا ساعة في الزمان تبدأ لتنتهي في الفور واللحظة، وليس التعبير عنه بأنه (اليوم) إلا تطويل متفائل لأمده، ففيم يقنط أصحاب القلوب الوجلة؟ وفيم يبخل الباخلون بما أتاهم الله من فضله، فيعيشون مطوقين بما يخلوا به؟ وفيم يتيه التياهون من ملوك الأرض؟

ألا وما أصدق أبي حازم سلمة بن دينار: "بيني وبين الملوك يوم واحد. أما أمس فلا يجدون لذته وأما الغد فإني وإياهم منه على خطر فلم يبق إلا اليوم فما عسى أن يكون؟".

obeikandi.com

الفصل الثاني

العامل بالفقه

"طوبى لمن هدى للإسلام وكان
عيشه كفافًا وقنع"

حديث شريف

- عمل الفقيه
- عمل العامل بيده
- التجارة – الصناعة
- الغنى عن الأشياء
- صلة الإخوان
- ورع النفس والفقه
- ورع الطريقة
- الوعظ والقصص والبدع

obeikandi.com

عمل الفقيه:

عف أحمد عن حظه من جراية الرشيد على العلماء وارتفع عن جراية المأمون عليهم قال اسحق بن موسى الأنصاري: دفع إلى المأمون أموالاً أقسمها على أهل الحديث وفيهم ضعفاء فلم يبق أحد منهم إلا أخذ، إلا أحمد بن حنبل فإنه أبى.. وقال له ابنة صالح: يا أبت إن أحمد الدورقي أخذ ألف دينار. فقال يا بني: ورق ربك خير وأبقى.

ولما قبل ابناه وعمه عطاء المتوكل قال لهم "لم تأخذونه والثغور معطلة غير مشحونة والفئ غير مقسوم بين أهله؟".

ولما مرض ابنه عبد الله فدخل يعوده قال يا أبه قد بقى عندنا شيء مما كان يبرنا به المتوكل أفأحج منه؟ قال نعم: قال عبد الله: فإذا كان عندك كذا فلم لم تأخذ؟ قال يا بني ليس هو عندي حرام ولكني تنزهت عنه.

فأحمد لا يحرم مال الخليفة على الفقهاء ولكنه – هو – يتنزه عنه لأسباب. وزهد أحمد زهد العارفين الذين يزهدون في كل ما يشغل عن الله سبحانه وإن كان حلالاً.

سئل مالك عن أموال السلطان فقال: "أما الخلفاء فلا شك. وأما من دونهم ففيه شيء" وقيل له يومًا: "ثلاثة آلاف دينار تأخذها من أمير المؤمنين!" فأجاب "لو كان إمام عدل فأنصف بها أهل المروءة لم أجد بها بأسًا".

وأسد بن الفرات – تلميذ مالك ومحمد بن الحسن – يقول عن العطاء الذي منه عليهم ابن الأغلب: إنما أخذنا حقوقنا عنده والله سائله عما بقى.

والمتفق عليه أن رزق الحاكم وأمثاله جائز عند الحاجة. وقيل: يشبه العالم إذ يصيب من رزق الحاكم ولى اليتيم يأخذ من مال اليتيم لحاجته..

ولما أرسل عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث ابن يمجد الأشعري يفقهان البدو، وأجره عليهما أجرًا، أخذ يزيد وأبي الحارث وقال عمر:

"والله ما نرى بما صنع يزيد بأسًا وأكثر الله فينا مثل الحارث بن يمجد".

ومن الروايات ما يفيد أن الخليفة الأمين سأل الشافعي أن يلتمس له قاضيًا لليمن وأن الشافعي عرض الوظيفة على أحمد وزين له قبولها بما سيتاح له من سماع حديث عبد الرازق في صنعاء وأن أحمد أجاب: إن سمعت هذا منك لم ترني عندك.

والرفض مفهوم. والعرض – لو صح – غير مفهوم. فأحمد منه غلوميته بتورع. فلا يسوغ في الذهن أن يربط نفسه بأقياد من ذهب خليفة هو الأمين.

والعرض غير مفهوم إذ الشافعي أدرى الناس بأن ورع أحمد ينأى به عن هذه الوظيفة. وأنه أقرب ورعًا إلى أبي حنيفة الذي رفضها من أبي يوسف الذي قبل. وأولى من رفض أبي حنيفة القضاء لأبي جعفر رفض ابن حنبل أي عمل للأمين.

ووظيفة القضاء هي الوظيفة التي قيل إنها ذبح بغير سكين. ويقول ابن وهب وهو يهرب منها "العلماء يحشرون مع الأنبياء والقضاة يحشرون مع السلاطين، ولما وليها ابن حجيرة قال أبوه: "إنا لله وإنا إليه راجعون. هلك الرجل" (٤٦).

---

(٤٦) دعا الرشيد عبد الله بن إدريس ووكيع بن الجراح وحفص بن غياث ليوليهم القضاء فطرح ابن إدريس نفسه كأنه مفلوح فقال الرشيد خذو بيد الشيخ فإنه لا خير فيه. ووضع وكيع أصبعه على عينه وقال: "والله يا أمير المؤمنين ما أبصرت بها منذ سنة" فاعفاه. أما حفص فقيل وقال: (لولا غلبة الدين والعيال ما قيلت) بل كان يقول: (ما وليت القضاء حتى حلت لي الميتة).

ولما سئل أحمد عن شيخه وكيع وابن مهدي. قال أحمد: أما وكيع فلم يكلم صديقه حفص بن غياث إذ ولي القضاء حتى مات. وأما ابن مهدي فما زال يكلم معاذ العنبري إذ ولي القضاء حتى مات – مؤثرًا وكيعًا على ابن مهدي.

وتوارث المحدثون، عامة، والمتصوفة، تقليد الصدود عن ولاية القضاء: دعا المتوكل لولاية القضاء أحمد بن المعذل وإبراهيم التيمي ومحمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب – من نسل خالد بن أمية على أعتبا بني أسيد الذي ولاه الرسول مكة – فامتنع إبراهيم واحتج أحمد بضعف بصره للخليفة واعتذر ابن أبي الشوارب بأعذار فألزمه المتوكل قالوا: ودخلت البركة عليه وعلى بنيه وحفدته فوليه منهم أربعة وعشرون حتى سنة ٤١٧ منهم ثمانية ولوا وظيفة قاضي القضاة.

ولما دعا الخليفة المستعين نصر بن علي للقضاء دعا نصر وبه: اللهم إن كان عندك لي خير فاقبضني إليك. ثم نام وفي الصباح أنبهوه فوجدوه مات..

والمحدثون يرفعون التحديث فوق الفقه – والفقهاء يرفعون الفقه فوق القضاء. يقول عمر بن قيس الملائي (١٤٦) حديث أرفق به قلبي وأبلغ به ربي أحب إلي من خمسين قضية من قضايا شريح.

openkarbai.com

ولئن سوغ واقعة عرض القضاء على أحمد أن يستعين الأمين ببني شيبان في شدته كما استعان بهم أبوه وجده وجد أبيه، وشيبان في صدارة الحزب العربي، إن أحمد كالشافعي كانا فوق الأحزاب. وكل مؤهلات أحمد كانت موانع للقبول لا مقتضيات. والشافعي ذاته تجربة سابقة في القضاء باليمن حيث أفلح في القضاء وأخفق في إرضاء الكذابين فوشوا به للرشيد، ولم تفلت رقبته من السيف إلا بفرق شعرة. وهو لا يسلم تلميذه إلا أخطر نجاة الله منه.

وأحمد هو القائل: "الدنيا داء والسلطان داء والعالم طبيب فإذا رأيت الطبيب يجر الداء لنفسه فاحذره".

وزهد أحمد في مقاربة السلطان منهج لا مسمح فيه له ولا لشيخه.

لقد بلغه يومًا أن كتابًا بعث به لإسحق بن راهوية قد أدخله إسحق علي عبد الله ابن طاهر أمير خراسان وقرأه عليه. وكانت لابن طاهر مجالس للعلماء كمجالس الخلفاء. فأمسك أحمد عن مكاتبة إسحق، ولما تولى أحمد بن سعيد الرباطي رباطًا بخراسان لعبد الله بن طاهر وقدم على أحمد "جعل أحمد – كما يروى الرباطي– لا يرفع رأسه إلى فقلت يا أبا عبد الله إنه يكتب عني الحديث بخراسان، وإن عاملتني بهذه المعاملة يرمون حديثي. فقال لي: يا أحمد هل بد يوم القيامة أن يقال ابن عبد الله بن طاهر وأتباعه؟ فانظر أين تكون منه".

وكان إسماعيل بن اسحق من العلماء مؤاخيًا لأبي الحسن بن أبي الورد – من العلماء الزهاد – ولما ولي إسماعيل القضاء دعي ابن أبي الورد يومًا لشهادة أمامه فدخل عليه فوضع يده على كتفه وقال: يا إسماعيل علم أجلسك هذا المجلس كان الجهل خيرًا منه. فوضع القاضي رداءه على وجهه وجعل يبكي.

ومن القضاة من يبلغ عند الله أعلى الدرجات – ومنهم من يعبد الله بقضائه.

وذات يوم جاء مجلسه يجيى بن أكثم قاضي القضاة وكان مقدمًا بين العلماء صادقًا في الإنجليز لأهل السنة. فلم ينظر إليه أحمد مع حسن رأى أحمد فيه ورأيه في أحمد، حتى ليوصي أحمد به المتوكل لولاية القضاء دون محمد بن شجاع الثجلي إذ كان ابن شجاع من المؤولين المتكلمين، ومع ذلك يسأل يحيى أحمد فيطرق ولا يجيب. وكان تقدير المأمون ليحيى عظيمًا، وربما رجع إطراق أحمد لتصرف فيه عجيب أو عيب أو أنه بلغه عنه ما يريب.

* * *

وكره أحمد لبنيه وعمه إسحق أن ينالوا من مال السلطان، فلما خالفوه إليه قاطعهم وقطع كل علاقة مالية معهم.

رأى يومًا أن يحتجم ولم يكن لديه مال فأرسل دجاجة لبنته أم علي (زينب) لتباع، وكان ابنه عبد الله في الدكان مصادفة، فسأل من يحمل الدجاجة؟ كم ثمنها؟ قال درهم ودانقان. فزاد فصير الثمن درهمًا ونصف. أي زاد سدس درهم واشتراها، فلما علم أبوه أمر باستردادها وبيعها من غريب فيبعث بدرهم ودانقين.

وكسدس الدانق من عبد الله كانت النار من تنور صالح – لها رائحة السلطان! أتى على أحمد ثلاثة أيام ما طعم فيها مرة، وكان قد تخطى السبعين. فاستقرض شيئًا من الدقيق، وخبزوا له بالعجلة. فلما وضع بين يديه قال: كيف خبزتم هذا بسرعة؟ قالوا: التنور مسجور في بيت صالح فخبزنا هناك بالعجلة. فلم تشفع سنه ولا جوعه لأهله فيما صنعوا، وذعره أن تدخل نار صالح في طعامه وقال: ارفعوا. ولم يأكل. ثم أمر بسد بابه إلى دار صالح!

حتى نسمات الهواء لا يضى أن تجيئه عن طريق مال السلطان وإن كان يموت لقد أقبل غلام لعمه اسحق يروح عليه وهو مريض قبل أن يموت بليلتين فنهاه؛ لأن عمه اشترى هذا الغلام من مال السلطان!

يقول سفيان الثوري: "لا تقتد بصاحب عيال. فإنه قل صاحب عيال أن يسلم من التخليط، وعذره دائمًا في أكل الشبهات والحرام قوله عيالي". لكن احمد لا يخلط ولا يعتذر، بل يحمل التبعة عن أهله وهم يتجاوزون العشرين والثلاثين والسبعين من العمر، ويؤدبهم بالنصح العنيف لهم، ويعلم الأمة بهم، ويركبه الهم إذ يأخذون ما أخذوه بسببه، ولا يكتسبون قوتهم بعملهم كما يكسب قوته بعمل يده عند الحاجة.

حتى الميراث الحلال كان يتحرج منه ويعلن في الناس عزمه على دفعه لمن يستحقه.

كان من العلماء في ذلك العهد من يرى بغداد دار غضب لا تشترى أرضها ولا تباع، لأن المنصور أقامها في أرض السواد – وهي أرض موقوفة للمسلمين فلا تملك– فكان أحمد يذرع داره ويخرج الزكاة عنها في كل عام، ذاهبًا مذهب عمر بن الخطاب في أرض السواد، بل كان يتكلم عن داره كلام فقيه في نفسه منها أشياء. يقول: هذا شيء ورثته عن أبي فإن جاء أحد فصحح أنه له خرجت له عنه. ودفعته إليه.

وسئل في مسألة من الورع فأجاب "أنا أستغفر الله، لا يحل لي أن أتكلم في الورع، أنا آكل من غلة بغداد، ولو كان بشر بن الحارث صلح أن يحييك، فإنه كان لا يأكل من علة بغداد ولا من طعام السواد، فهو كان يصلح أن يتكلم في الورع".

أما بشر فيقول: بغداد ضيقة على المتقين ما ينبغي لمؤمن أن يقيم فيها.. قيل له: فهذا أحمد بن حنبل – فماذا تقول؟ قال: دفعتنا الضرورة إلى المقام بها كما دفعت الضرورة إلى أكل الميتة.

وأحمد وبشر يريان جواز بيع الأنقاض لا الأرض. فالأنقاض ملك لمن أقام البنيان، أما الأرض فأرض المسلمين غصبها المنصور، وأحمد يرى جواز نزول بغداد باستئجار. ولمن أقام البناء المؤجر أجرة البناء.

عمل العالم بيده:

التجارة والصناعة:

وينقلنا عمران بن الجصاص، من بغداد ومن السواد، نقلة معلمة للأمة فيروي: قلت لأحمد بن حنبل هذه أربعة دراهم – درهم من تجارة برة ودرهم من صلة الإخوان ودرهم من التعليم ودرهم من غلة بغداد؟ قال: ما منها شيء أحب إلي من التجارة. ولا فيها شيء أكره عندي من صلة الإخوان. وأما التعليم فإني أرجو ألا يكون به بأس لمن احتاج. وأما غلة بغداد فأنت تعرف إيش تسألني عنها.

فأحمد يرى العمل لكسب الرزق أكرم شيء. والعيش على الصلات أكره شيء. وأما الأجر على التعليم فللمحتاج.

ولكم عمل أحمد ولم يدع أحد من الخلطاء أو الأخلاء يساعده. فربما أخذ المقدوم وخرج إلى داره السكان يعمل بها إصلاحًا. وهو يستقي ماء الوضوء من بعيد ولا يدع غيره يستقي الماء له، ويشتري حزمة الحطب أو الشيء ويحمله، ويأمر أصحابه من المالكين أن يلزموا العمل بضياعهم، ومن قبل أحمد كان عمر بن الخطاب يوصي الأغنياء والفقراء ليتعلموا المهنة فإنه يوشك أن يحتاج أحدهم إلى مهنة، وينادي الفقراء في إحدى خطبه "يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق باستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على المسلمين".

وعمل المرء بيده شكر لله على القدرة. وآية مساواة بين الناس. ومن الشكر لله وطيب العشرة أن يعمل المرء ما يعمله عماله، فيكفي نفسه حاجاتها، كان الصديق أبو بكر إذا سقط خطام ناقته ينيخها ويأخذه فيقال له هلا أمرتنا؟ فيقول: إن رسول الله أمرني ألا أسأل الناس شيئًا.

وكان عمر يحمل القربة على ظهره لأهله. وعلى يحمل لأهله التمر والملح في ثوبه ويده ويقول:

ولا ينقص الكامل من كماله   ما جر من نفع إلى عياله

وعلي يروي عن فاطمة أنها أجرت الرحى حتى أثرت الرحى بيدها، واستقت بالقربة حتى أثرت القربة بنحرها، وقمت البيت حتى أغبرت ثيابها. وأرقدت تحت القدر حتى أوسدت ثيابها وأصابها من ذلك ضر، وكما يقول عطاء: إن كانت فاطمة لتعجن وإن قصتها لتصيب الجفنة.

وابن مسعود وأبي كعب وأبو هريرة وحذيفة كانوا يحملون حزم الخطب وجرب الدقيق على أكتافهم وظهورهم، ولما أثنى على رجل أمام الرسول فقيل: كنا إذا ركبنا لا يزال يذكر الله تعالى حتى ننزل وإذا نزلنا يذكر الله حتى نرفع. قال عليه الصلاة والسلام: فمن كان يكفيه بعيرة؟ قالوا: كلنا. قال: "كلكم خير منه" [٤٧].

---

(٤٧) قال سلمان: كاتبت صاحبي على ثلثمائة نخلة أحييها له بالخفر والغرس وأربعين أوقية فقال رسول الله أعينوا أخاكم.. فخرج معي.. فجعلنا نقرب الودى (أفراخ النخل الصغيرة) ويضعه بيده حتى فرقنا. وهو عليه السلام يحرص على البدار في عمارة الدنيا فيقول: "إن قامت الساعة وفي يد أحد منكم قبلة (النخلة الصغيرة) فليغرسها. فإن استطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها).

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يعلف بعبره ويخصف نعله ويرفع الثوب والدلو ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا تعب ويحمل الشيء الذي يشتريه ويقول لمن أراد حمله عنه: "صاحب الشيء أولى بحمله".

وكان شرعًا مع أصحابه. يخدمهم كما يخدمونه. قال أبو مسعود: كنا يوم بدر ثلاثة منا على بعير والنبي يقول لزميليه علي وأبي لبابة إذا أرادوا أن يستمر راكبًا في دروبهما: ما أنتما بأقوى على المشي مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكما (٤٨).

سئل الفضيل بن عياض عن الرجل الذي يقعد ينتظر الرزق فقال: لم يفعل هذا الأنبياء ولا غيرهم (٤٩).

ويقول الرسول "لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي الجبل فيجيء بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ويستغني بثمنها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه...".

ولما رأى عمر جماعة من أهل اليمن يقعدون عن طلب الرزق باسم العبادة سألهم من أنتم؟ قالوا: المتوكلون. قال: بل أنتم الذين يأكلون أموال الناس بالباطل (٥٠).

---

(٤٨) وحدث عقبة بن عامر: (كنت آخذ بزمام بغلة الرسول عليه السلام في بعض غاب المدينة فاقل لي: يا عقبة ألا تركب؟ فأشفقت أن تكون وصية فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنيهة ثم ركب).

(٤٩) بارع عليه السلام واشترى – وأجر واستأجر. وكان شراؤه بعد الرسالة أكثر من بيعه. وآجر نفسه قبل الرسالة لرعاية الغنم. ومن خديجة في السفر بمالها إلى الشام (قالوا إن كان العقد مضاربة فالمضارب أمين وأجير فيما يعمله بنفسه من العقل وشريك إذا ظهر فيه الريح)، ووهب عليه السلام وأنهب واستعدان برهن وبغير رهن واستعار وضمن ضمانًا خاصًا على ربه على أعمال، من عملها كان مضمونًا له الجنة، أو ضمانًا عامًا لديون من توفي من المسلمين، إذا لم يخلفوا وفاء، أنها عليه وهو يوفيها من بيت المال، (قيل كما يرثه إذا مات ولم يدع وارثًا فكذلك يقضي دينه إذا مات ولم يدع وفاء وكذلك ينفق عليه في حياته إذا لم يكن من ينفق عليه).

(٥٠) ومن أئمة الزاهدين إبراهيم بن أدهم. كان يؤجر نفسه. وسلم الخواص يلقط الحب. وأبو زيد البسطامي يعمل بستانيًا. يعرفون جميعًا ألا رجاء إلا مع العمل ببذل الجهد وحسن التوكل وهذا ما يفرق بينه وبين التمني. فالتمني يكون مع الكسل.

ويحيى بن معاذ البلخي (٢٨٥) المتصوف يقول: (طلب الزهد فرارًا من المشقة بطالة وليس الصوف من غير إماتة النفس جهالة.. وترك المكاسب مع الحاجة إليها كسل. والقعود مع تضييع العيال جهل). وسيجري مجرى هؤلاء نزهاء من رجال الفقه والقضاء مثل شمس الدين البساطي، يتنازل عن مرتب القاضي ويعمل

وأبو الدرداء الذي يقول "نعم صومعة الرجل بيته" سألته زوجته وكانت فقيهة: إن احتجت بعدك آكل الصدقة؟ قال – لا – اعمل وكلي، فإن ضعفت عن العمل فالتقطي السنبل ولا تأكلي الصدقة... ولما لقى أبو الدرداء ربه، خطبها أمير المؤمنين معاوية، فقالت: "لا أغير على أبي الدرداء".

والعرب يقولون: "لو بقى الليث في الغابة لمات من السغابة".

* * *

وكان أحمد ربما عمد إلى اللقاط إذا احتجاج. خرج إلى ثغر طرسوس ماشيًا فأعورته النفقة فلم يدخل المزارع يلتقط كالآخرين، بل كان يستأذن صاحب المزرعة قبل الدخول. قال: رأيت قومًا يفسدون مزارع الناس، لا ينبغي لأحد أن يدخل مزرعة رجل إلا بإذن.

وكان يرى اللاقطين يكبون على وجوههم ويمشون على أيديهم وأرجلهم ليستحي أن يمشي مكبًا على وجهه كمن يمشي على أربع، فكان يعقد ويتحرك فيعوق نفسه ويلقط أقل من غيره. لكنه يجد قوته. وهذا حسبه.

وخرج إلى عبد الرازق بن همام باليمن فكرى نفسه مع الحمالين ولم يقبل صلات الإخوان ولا قروضهم وفيهم يحيى بن معين، وآثر أحمد أن ينسج التكك للسراويل ويبيع ويتقوت. وقيل إنه أقام سنتين ورهن نعلاً له عند خباز بصنعاء.

ولما قال له عبد الرازق باليمن إن أرضنا ليست بأرض متجر ولا مكسب وعرض عليه دنانير ملء كفه قال أحمد: يا أبا بكر لو قبلت شيئًا من الناس قبلت منك.

وفي واسط احتاج للمال فدفع جبته إلى من باعها. ولما عرض عليه يزيد بن هارون مائة درهم أو نحوها قال "إني لمحتاج إليها وإني لابن سبيل ولكن لا أحب أن أعود نفسي هذا". وباع غطاءه وملابسه ليقتات.

ليعيش يومًا يومًا فيخرج يصطاد بشبكته قوت يومه ثم يدخل داره من خوخه فيغير باسه ويجلس مجلس القضاء.

ولما سرقت ثيابه بمكة كانت معها ألواح مكتوبة فسأل صاحبة الدار عنها فقالت: هي في الطاق. فلم يجزع ما دامت الألواح سلمت له، ولزم داره. فافتقده صحبه فجاءوه وعليه خلقان لا يعرف كيف يخرج للناس، فغلق على نفسه الباب، واجتمع الأصحاب، فجهدوا جهدهم ليقنعوه أن يقرضوه، ليشتري ثوبًا، فأبى. فلما استيأسوا منه تعاقدوا معه على عمل: أن ينسخ لهم مؤلفًا. وآتوه أجره دينارًا اشتروا به ثوبًا له.

وبقى الكتاب في خزانة صاحبه يفاخر به أجيال الفقهاء فيما بعد فيقول "كتاب نسخة بيده أحمد بن حنبل...".

فهو يعلو على صلات الإخوان ولو كانت قروضًا ترد، وينزل عن حقه في صلات الآخرين كمضطر، ويؤثر العمل على الراحة، أو التعليق بحبال المودة، أو استعمال حقوق ابن السبيل في مال غيره، وله في الإيراد الشهري الضئيل مقنع حتى يحتاج فيعمل (٥١).

والسري السقطي صاحب أحمد يروي عن المغيرة بن شعبة عن الرسول ﷺ "شعار المسلم على الصراط: رب سلم سلم"، وبهذا الشعار اختلف سري إلى السوق يكسب قوته وأقوات الزهاد الذين يصلهم من كسبه، ويعلم التجار النزاهة في التجارة والزمالة في السوق. قال: حمدت الله مرة فأنا أستغفر الله من ذلك الحمد من ثلاثين سنة. كان لي دكان فيه متاع فوقع الحريق في السوق.. فخرجت أتعرف خبر دكاني فلقيت رجلاً فقال: أبشر فإن دكانك قد سلم. فقلت الحمد لله – ثم إني فكرت فرأيتها خطيئة.

وذات يوم اشترى السري لوزًا بستين دينارًا. وعزم أن يبيعه بثلاثين وستين. فجاءه الدلال يطلبه بسبعين. قال: خذه بثلاثة وستين. قال: إن الثمن سبعون. قال سري: إني عقدت بيني وبين الله عقدًا أن أبيعه بثلاث وستين. قال الدلال: وأنا عقدت بيني وبين الله عقدًا ألا أغش مسلمًا.

---

(٥١) يقول عليه الصلاة والسلام: (خير الكسب كسب العامل بيده إذا نصح) جاءه أنصاري يسأله فقال له – ﷺ– أما في بيتك شيء؟ قال بلى: حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه. وقعب نشرب فيه الماء. قال: ائتني بهما. فأخذهما رسول الله وقال: من يشتري هذين؟ قال رجل أنا آخذهما بدرهم. فقال: من يزيد على درهم؟ مرتين أو ثلاثًا، فقال رجل أنا بدرهمين أعطاهما إياه. وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري وقال له اشتر بأحدهما طعامًا فأنبذه إلى أهلك. واشتر بالآخر فأسًا فائتني به. فأتاه به فشد رسول الله ﷺ عودًا بيده ثم قال للرجل: "اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يومًا" فذهب يحتطب ويبيع وجاء وهو قد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبًا وبعضها طعامًا فقال رسول الله ﷺ: (هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة).

ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "إن أطيب الكسب كسب يد التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا وإذا اؤتمنوا لم يخونوا وإذا وعدوا لم يخلفوا وإذا اشتروا لم يذموا وإذا باعوا لم يطروا وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا" وليست هذه الشروط قيودًا على حرية التجارة، وإنما هي موانع للمغامرة ومقتضيات لحسن التراضي، والتجارة إذا لم تكن عن تراض كانت مأكلة للأموال وشراكًا للضعفاء. فالشروط التي شرطها الرسول للكسب الطيب هي أوسمة يميز بها صاحب الشريعة وصف التاجر.

وإذا كان من تراث الصحابة العاملين للرزق أنهم يعملون في أموالهم كما يعملون في مال الله فيجعلون كثرتها للفقراء فمن نزاهة التاجر أن يحدد ربحه تحديد المصلحة العامة له.

والخلاف بين السرى ودلالة خلاف بين نصف العشر برضاه، وبين العشر كله مضافًا إليه نصف العشر "٥ أو ١٥%" تتيحه للسرى فرص التجارة وإصرار دلالة، لكن نفسه تعافه، لأنه يمثل المصلحة العامة في ماله.

أما الصناعة فإنشاء وإبداع يضيف جديدًا للدنيا، ومن أجل ذلك – كما يقول إبراهيم النخعي أستاذ مدرسة الكوفة – "كان الصانع بيده أحب إليهم من التاجر، وكان التاجر أحب إليهم من البطالة".

وكان أحمد يقول: عبد الوهاب أطيب طعمة من غيره – يقصد عمله في الوراقة [٥٢].

---

(٥٢) كان من أعمال الوراثة في ذلك العهد نسخ الكتب، وتصحيحها، وتجديدها، ونشرها، وما يتصل بذلك، تتابع العلماء على العمل في الوراقة كمالك بن دينار وسيمون بن مهران من قبل، كما تتابع عليها من بعد إمام الحرمين وابن الهيثم.

وكان عصر الرشيد والمأمون عصر النهضة لتدوين العلم على نطاق واسع، فاستجلب الورق من مصادره في مصر والصين لمواجهة حاجات الدولة والأمة، والمتفقهة بالمترجمين من كل أمة معروفة.

ولما أمر الرشيد وألا يكتب الناس إلا في الكاغد لأن الجلود ونحوها تقبل المحو فتحتمل التغيير والتوير، وكثر الورق بين أيدي الناس، فشت الكتابة ووجد المتعلمون آلافًا ومئات يكتبون، فصار يغشى الخلق في عصر أحمد من يحصون بالآلاف منهم مئات أو آلاف يحملون المحابر.

ولم يك توجيه الرشيد لاستعمال الورق أقل أثرًا في الحضارة العربية وما أنتجت من آثار في الحضارة المعاصرة عن اختراع المطبعة بعد سبع قرون في القرن الخامس عشر للميلاد.

قال عبد الوهاب: قال لي أحمد بن حنبل ما صنعتك؟ قلت وراق – فقال كسبك طيب وصنعتك طيبة ولو كنت صانعًا شيئًا بيدي لصنعت صنيعتك. وقال لا تكتب إلا مواصفة، واستثن الحواشي وظهور الأجزاء.

ولقد نسخ أحمد بيده أورقًا لآخرين لقاء أجر وكم نسخ الأحاديث آلافًا ومئات آلاف.

وكان يأمر بنيه أن يختلفوا إلى السوق وأن يعملوا، وعملت أزواجه وباع هو غزلهن، فهو يضرب المثل على وجوب العمل على الرجل والمرأة باليد والفكر، وجرى فقهاء مذهبه مجراه. مثل أبي بكر الخلال يكتب رسالة في الحث على التجارة والصناعة والعمل يذكر الناس فيها أن داود عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده ويخطب الناس على منبره وهو يعمل الخوص بيده، ويأكل من ثمنه. وكمثله ابنة سليمان وكذلك كان النبي إدريس خياطًا وزكريا نجارًا.

الغنى عن الأشياء

لا بالأشياء:

ونتاج الجهود حقيق بإيتاء حقه عند حصاده. والحقول فيه تتكاثر قدر ما يتكاثر. والمال الكثير للخازن، كالماء الكثير للشارب، قد تكون فيه الهلكة. يقول مالك ابن دينار: هلك أصحاب الأثقال.

ورأى ابن عباس درهمًا في يد صاحبه فقال له: "ليس لك حتى يخرج من يدك" (٥٣).

ومن عدم الحاجة يصبح الزهاد أغنياء، فمن كانت به الحاجات ومعه ما يحققها من آلاف الدنانير لم يكن معه زيادة، ومن لم تكن به هذه الحاجات فهو غني عنها وعن آلاف الدنانير. ومن ثم يتحقق وصف الغنى، بالآلاف، وعن الآلاف. يقول الشاعر "وليس الغني إلا عن الشيء لا به". والفتور الممسك أقرب الملاك إلى من لا يملك. والذي يملك أشياء أكثر تملكه أشياء أكثر.

---

(٥٣) ذلك بعض المعنى في قول شاعر الورع أبي العتاهية:

مثل الرقد الذي تطلبه ... مثل الظل الذي يجري معك
أنت لا تدركه متبعًا ... وإذا وليت عنه تبعك
أنت للمال إذا أمسكته ... فإذا أنفقته فالمال لك

يقول أحمد: الفقر من الخير. ويقول: أتدري إذا سألت أهلك حاجة لا تقدر عليها أي شيء لك من الأجر؟

والرسول عليه السلام يقول لحاطب بن أبي بلتعة (قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه" ويقول لبلال: "ألق الله فقيرًا ولا تلقه غنيًا" ويقول للمسلمين: "المكثرون هم المقلون يوم القيامة".

وتراث الصوفية في هذا المغزى غزير، كمثل قول منصور البطائحي "كل موجود في الدنيا لا يعاون على تركها فهو عليك لا لك". وقول شفيق البخلي قبله "علامة صدق الزاهد أن يصير يفرح لكل شيء فاته من الدنيا ويغتم لكل شيء حصل له منها".

والمال غاد ورائح – والمال يشتري الأشياء ولا يشتري السعادة. ويشتري الدواء ولا يشتري الصحة. بدنية أو نفسية، ويشتري الأشياء الصغيرة التي نملكها ولا يشتري الأشياء الكبار التي تملكنا وتمسكنا، كقوى الطبيعة وقوى النفس الإنسانية.

والصحة وصلاح البال جماع النعم. وأين منهما كثرة الأغنياء بل كثرة الناس! صدق عليه الصلاة والسلام "نعمتان مغبون فيهما أكثر الناس. الصحة والفراغ".

قيل لأحمد بم تلين القلوب. قال بأكل الحلال. فمضى السائل إلى بشر فسأله فأجاب: ألا بذكر الله تطمئن القلوب. قال السائل إنه سأل أبا عبد الله – أحمد – فقال: بأكل الحلال. قال بشر "جاءك بالأصل". فمر السائل إلى عبد الوهاب الوراق يسأله فأجابه: ألا بذكر الله تطمئن القلوب، قال الرجل: فإني جئت من عند أبي عبد الله. فأحمرت وجنتا عبد الوهاب وسأله ماذا قال: قال أجابني بأكل الحلال. قال عبد الوهاب: "جاءك بالجوهر. الأصل كما قال".

ولقد وضع ابن مسعود القاعدة في حالي الغنى والفقر يوم قال: "الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل".

وبذلك كان عثمان وعلي وابن عوف والزبير من الزهاد مع ما تداولت أيديهم من المال، وكمثلهم كان الحسن بن علي وأبو حنيفة والليث بن سعد ذوي مال وزهادًا! والأخيران لباسان لم تمنع أناقة اللباس أن يكونا بين أزهد الأئمة، وكان مالك حسن اللباس، بل كان سعيد بن بشر قاضي هشام بن عبد الملك في الأندلس (١٧٢ – ٢٠٦) يجلس للحكم في رداء معصفر وشعر مفرق إلى شحمة أذنيه وفيه يقول ابن عبد ربه: "كان أوحد الناس وآخذهم بعدل وأبعدهم من هوى".

وفقه أحمد واضح في إباحة المال الحلال، وفي السعة.

يسأل عن الزاهد يكون معه دينار أيكون زاهدًا؟ فيجيب "نعم على شريطة إذا زادت لم يفرح وإذا نقصت لم يحزن" فعبادة المال والفرح بتكاثره والحزن على نقصانه هي الآفات عنده. والله سبحانه وتعالى يقول "لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم".

ولما قيل للحسين سيد شباب الجنة: إن أبا ذر يقول: "الفقر أحب إلي من الغنى والسقم أحب إلي من الصحة" قال: رحم الله أبا ذر – أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يحب غير ما اختاره الله له.

والمال لا يذم إذا جاء من حله ووضع في محله، فنعم المال الصالح للرجل الصالح، وسفيان الثوري يقول "الزهد قصر الأمل وليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة" وإنما المذموم هو التشبث الذي يجعل القلب هلوعًا، أو جزوعًا منوعًا. فلذلك شاغل عن الله سبحانة وتعالى. فإذا سلم القلب وخشى الله فقد يكون صاحب المال أو المظهر أزهد من فقير هلوع. وإخراج الفضل والاقتصاد على الكفاية أفرغ للقلب وأنفع للدنيا والآخرة.

openkandi.com

يقول أحمد: الزهد على ثلاث درجات: ترك الحرام، وهو زهد العوام. وترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص. والثالث ترك ما شغل عن الله، وهو زهد العارفين.

وداود الطائي يقول: "كل ما يشغلك عن الله تعالى من أهل ومال فهو شؤم عليك".

* * *

وكثيرًا ما بذل الأغنياء لمعاصريهم ولم ينفع البذل في إنزال السكينة على القلوب، وكثيرًا ما ازداد الآخذون سعارًا إلى المال وطلبًا للدنيا.

وفي محن الوجود الإنساني أسباب شتى للقنوط والقلق، والصبر ترياق، وشفاء. وهو أكبر الفضائل البناءه أثرًا في عمارة الدنيا ومعالجة أعبائها. والناس أحوج إليه في كل حالاتهم. وإذا كان الفقر أدعاها إلى الضيق فهو أولادها بالصبر.

يقول أحمد: الفقر عناء، والصبر عليه منزلة لا ينالها إلا الأكابر. ويقول: الفقر أشرف من الغنى فإن للصبر عليه مرارة.

وينبه الناس على حكمة الخالق سبحانه فيقول: "ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعًا، وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان. فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر".

والصبر درجات. قالوا: كان صبر يوسف عليه السلام عن طاعة امرأة العزيز أكمل من صبره على النقم التي أنزلها به إخوته بإلقائه في الجب، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه، لأنها أمور جرت عليه بغير اختياره. أما صبره عن المعصية فصبر واختيار ورضا، فيه محاربة للنفس مع دواعي هواها من الشباب، والعزوبة، والغربة، والجمال في كل جانب، وغياب الرقيب، ودعوة المرأة، وتوعدها والسلطة بيدها.

سئل النبي عليه السلام عن الإيمان فأجاب "الصبر والسماحة" وهذا من أجمع الكلام. فالصبر يحمل على ترك ما نهيت عن النفس والسماحة تحمل على بذل ما أمرت به.

والشكوى إلى الله من البرح والشدة لا تنافي الصبر – فيعقوب عليه السلام وعد بالصبر ثم قال: "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله" وأيوب عليه السلام مسه الضر فقال "مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين" والذي يشكو إلى الله غير البؤوس القنوط. وإنما يتنافى الصبر مع الشكوى إلى العباد.

رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقة، وضرورة، فقال له: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك.

ولما دخل سفيان على الفضيل بن غياض يعوده، فإن المريض: يا أبا محمد أي نعمة في المرض لولا العواد! قال سفيان: وماذا يكره في العواد؟ قال الشكية.. وبشر ابن الحارث يقول: اشتهى مرضًا بلا عواد، ويعرف الصبر الجميل بأنه الذي لا شكوى فيه إلى الناس.

والشكر أعلى المنازل لأنه يتضمن الرضا وزيادة. ولذلك هو نصف الإيمان، والله تعالى يسمى نفسه شاكرًا وشكورًا – وحسبك بهذا محبة للشاكرين وهو القائل جل ثناؤه: (لئن شكرتم لأزيدنكم).

والرضا بالقضاء بعد وقوعه هو الرضا، أما قبل أن يقع فهو مجرد عزم على الرضا، ولذلك كان دعاؤه ﷺ "أسألك الرضا بعد القضاء".

صلة الإخوان:

أجمع المسلمون على أحمد. فأصبح تعتاده الهدايا والألطاف من كل الأقطار، وهو كدأبة من اليسر وأناقة السلوك يترفق لكل أمر فيقبل الهدية واللطفة فيجزي عليها، أو يردها إذا كان الجزاء فوق مقدوره.

قدم عليه قادم من يعيد بكتاب وتليسة فيها فاكهة – وقرأ ابنه صالح الكتاب فجمع صبيانه فأدخلهم على جدهم وقال "إن بالكتاب أن رجلاً اشترى وباع باسم أحمد بن حنبل فربحت تجارته أربعة آلاف بعثها مع فاكهة من بستان ورثه عن أبيه وجده" قال أحمد لفناه: صني... وفتح التليسة، وفيها فاكهة مما يتهاداه الناس، ففرق الفاكهة وهي لا تصبر، على الصبية وهم وقوف، ورد المال. وكافأ المهدي على الفاكهة بأحسن منها، ثوب كان عنده، فأخذه الرجل كفنًا له.

ويروي ابن الجوزي (٥٩٧) عن صالح أن يحيى بن يحيى (٢٢٦) جاء أحمد بميطنة أوصى يحيى بها إليه. وأحمد يقول فيه "ما خرج من خراسان بعد ابن المبارك رجل يشبه يحيى ين يحيى" قال أحمد عن المبطنة "تذكرني بها" وفتحها. فإذا هي رزمة ثياب فأعادها قائلاً: اذهب رحمك الله. ويروي أبو طالب المكي عن أبي بكر المروزي أن يحيى بن يحيى أوصى إلى أحمد يجبه جاء به ابنه فقال أحمد: رجل صالح قد أطاع الله تبارك وتعالى فيها. والروايتان لا تختلفان

في أمرين: هما أنه يرد الهدية إذا كان فيها شبهة منفعة برزمة ثياب بتمامها وأنه يقبلها إذا كانت مجرد ذكرى.

كان يفترض ويرد القرض، وأهمت ديونه البعض. فأرسل إليه رجل ممن يسترن معروفهم بضعة آلاف من الدراهم قائلاً: إنه يعلم ما على أحمد من الدين فلعله يسدده ويوسع على عياله، وأجاب أحمد: إن العيال بنعمة من الله وإن الدائن لا يرهقه طلبًا، ورد العطية. وبعد عام كان يقول لبنيه: لو كنا قبلناها كانت ذهبت.

ويتحدث صالح بعد سنوات عن ظروف الرسالة فيقول "كنا في أيام الواثق (٢٢٧ – ٢٣٢) والله يعلم في أي حالة من الضيق نحن".

وتتكرر الهدايا وتعدد الآلاف والرفض مستمر. فإذا راجعه أحد من أبنائه قال: "دعنا نكن أعزاء".

ولم يكن يملك، وهذه حالة، فضل مال، لقد جاءه بعض سكانه يومًا بدرهم، فنهض ودخل إلى المنزل، ورأى جليسه أن هذا المال نضر وجهة وأبهجه. وفهم أنه كان يعده لحاجة مهمة!

وإذا احتال للهدية تلميذ تلقى منه درهمين ليشتري له بهما كاغدا، فرجع الفتى بكاغد ودس في جوفه خمسمائة دينار، وفتح أحمد الكاغد ووجد الدنانير، فإنه يعيد الدنانير إلى مكانها ويرد الكاغد بما حوى، والفتى يرجوه لو أخذ الكاعد، وقد دفع ثمنه، والشيخ يترك الكاغد له. فلقد كان يجوي مشروع هبة.

أهدى إليه رجل ولد له مولود خوان فالوذج، فكافأة سكرًا بدراهم صالحة. وأهدى إليه آخر رطلاً من ماء زمزم. فكافأة سويقًا وسكرًا.

وأهداه جاره جوين شيئًا من جوز وزبيب وتين يساوي ثلاث دراهم. فأعطى ابنه عبد الله دينارًا ليشتري بعشرة دراهم سكرًا وبسبعة تمرًا ويذهب بها إلى جاره.

ووقع من يده مقراض في بئر فتطوع ساكن لديه فأخرجه فناوله أحمد نصف درهم لقاء عمله قال الرجل: المقراض يساوي قيراطًا لا آخذ شيئًا.

فلما كان بعد أيام قال له: كم عليك من كرى الحانوت؟ قال: كرى ثلاثة أشهر. تسعة دراهم. فضرب على حسابه وقال: أنت في حل.

وهكذا عامل صاحبه من مركز القوة، والقوة عنده هي القدرة على الترك، يجمل وجهها إخاء كريم يتراءى في حسن تناوله للمسألة، وسخاء يكاد لا يحصى، وإن عبر عنه الفرق بين الدراهم التسعة، لرجل فقير هي نصف إيراده في شهر تمامه، وبين ما يستحقه رجل بدرت منه مجاملة في شأن لا تساوي قيمته كلها قيراطًا من درهم!!

* * *

وفي تبادل الصلاة إيلاف ورحمة وآية تواصل وتكافل. وهما قاعدة الأساس في بنيان الجماعة الإسلامية. مر الحسن بن علي رضي الله عنهما بقوم مساكين يسألون على قارعة الطريق فرآهم يأكلون كسرًا على الأرض. فسلم. فقالوا: هلم إلى الغداء يا ابن بنت الرسول. قال: نعم إن الله لا يحب المتكبرين. وأكل، وسلم، وركب، بعد أن دعاهم ليرد عليهم دعوتهم. فجاؤه لميعاده فأخرجت الجارية أفخر طعامها وطعموا معه.

وأحمد دائم الذكر لحال غيره: يقول: كم بين من يعطي من الدنيا ليفتتن إلى آخر تزوى عنه! ويحكي تلميذه المروزي.. فتذكرت الفضيل بن عياض وعريه، وفتح الموصلي وصبره، فتغرغرت عين أحمد وقال: رحمهم الله. كان يقال: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

ومع احتفاظه الدؤوب بمستوى فقره كان يواسي من قوته ومن وقوده ويعطي أكثر من عطاء الأسخياء: كل ما يملك أو نصف ما يملك! جاءه سائل يومًا فقال أحمد: ما عندنا إلا جذع شجرة وأعطاه إياه، وجاء الرجل بحمال فحمله فباعه بسبعة دراهم ودانقين. وذات يوم أعطى السائل أربعة دراهم أو خمسة دراهم وقال: هذه جميع ما أملك.

وفي أحيان أخرى يعطي السائل نصف ما يملك من الأرغفة. فيقول السائل: وقد نضر البشر وجهه "يا أبا عبد الله هذه الأربعة الأرغفة عندي أحب إلي من أربعة آلاف من غيرك".

وجاءه سائل بعد صلاة الجمعة فأخرج أحمد قطعة فدفعها إليه فحاول آخر أن يشتريها من السائل بدرهم. فأبى السائل أن يربح. فزاده الآخر حتى بلغ خمسين درهمًا. فقال: لا أعطيك. إني لأرجو منها مثل ما ترجو.

وفي يوم عيد قال أحمد لصاحبه ادخل. فدخل. فإذا مائدة وضعت على الخوان وعليها عراق وقدر إلى جانبها. فلما رأى منه صدودًا عن الأكل انطلق يباسطه ويقول له: كان السحن البصري يقول: والله لتأكلن. وابن سيرين كان يقول: وضع الطعام ليؤكل. وكان إبراهيم بن أدهم يبيع ثيابه لينفقها على أصحابه، وكانت الدنيا أهون عليه من ذاك وأومأ إلى جذع مطروح.. فانبسط الرجل وتبلج وجهه وأكل.

سأل عليه الصلاة والسلام أصحابه: أي الناس خير؟ فأجابوا موسر يعطي حق الله في نفسه وماله. قال: نعم الرجل هذا. وليس به: قالوا فمن خير الناس؟ قال مؤمن فقير يعطي جهده.

وكان ابن المبارك يقول للطاعمين من فاخر تمره: من أكل أعطيته بكل نواة درهمًا. ويعطي بعد أن يحصي فضل النوى. فمن أكل أكثر نال دراهم أكثر. وكان مثله الليث ابن سعد مع أضيافه الفقراء والأغنياء.

وفي بعض التحيات حسنات تتراءى في حسن الأخذ وحسن العطاء فلا تدري لأيهما الفضل. وفي بعض الأساليب ما يطرق جيد المعطي بفضل الأخذ، ومنها ما يطوق أجياد الآخرين.

كان الشافعي ينزل ببغداد على تلميذه الزعفراني وكانا يخرجان يوم الجمعة للصلاة. فيكتب التلميذ للجارية ما يصلح من ألوان الطعام. فدعا الشافعي الجارية يومًا ونظر الرقعة، وزاد لونًا اشتهاه، ولما قدمت الجارية اللون المطلوب، أنكر الزعفراني عليها وأظهرته على الرقعة، فلما ظهر الإمام أعتقها سرورًا به.

ورع النفس والفقه

يقول عليه الصلاة والسلام "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

وفقه أحمد فقه مكارم الأخلاق، وحيثما وجد الضعف والقوة فأحمد مع الضعيف حتى يقوى وعلى القوي حتى ينصف.

سئل أحمد بأي شيء ذكر الأئمة ووصفوا؟ قال: ما هو إلا الصدق الذي كان فيهم، فقيل له ما الصدق؟ قال: هو الإخلاص. قيل ما هو الإخلاص؟ قال: الزهد. قيل وما الزهد؟ فأطرق ثم قال: سلوا بشر بن الحارث.

ويقول عن بشر بعد إذ مات "رحمة الله. كان فيه أنس، وذكر له شيء من الورع"، أما بشر فكان يقول في أحمد: فضل علي بثلاث: يطلب الحلال لنفسه ولغيره، واتساعه للزواج، وضيقي عنه، وقد جعله الله إمامًا للعامة، وأنا أطلب الوحدة لنفسي.

ولا جرم أن كل فضيلة من الفضائل الثلاثة مظهر للخلق الإيجابي الذي يحمل به العلماء تبعات الأمة وأنفسهم.

وبشر وأمثاله يطرحون حظوط أنفسهم في الدنيا ليقوموا بحق الله، وبشر فقيه يعرف أن النبي نهى الذين أرادوا التشديد على أنفسهم بالتبتل. قال قائل منهم: "أنا أصوم ولا أفطر"، وقال الآخر: "أنا أقوم الليل ولا أنام"، وقال الثالث: "أما أنا فلا آتي النساء". وأنكر عليه الصلاة والسلام ذلك عليهم وقال: "من رغت عن سنتي فليس مني".

ويدفع بشر عن نفسه مأخذ عدم الزواج فيقول: ما يمنعني من ذلك إلا حرف واحد في كتاب الله عز وجل، ﴿**ولهن مثل الذي عليهن**﴾ أي الخوف من عدم الوفاء بحق الزوجة عليه، ولما ذكر ذلك لأحمد قال "وأين مثل بشر قعد عل مثل حد السنان".

سأل سائل أحمد عن التزويج: فأجاب: أراه.

يقول مستنكرًا الذين يمتنعون: "إلى أي رأي يذهب الذي لا يتزوج؟ كان للنبي عليه الصلاة تسع نسوة وكانوا يجوعون" (٥٤) ولما ماتت زوجة أحمد الثانية بنى بأخرى في الغداة.

ولقد تزوج أحمد في الأربعين وجلس للتحديث أيامذاك. فدل بتأخره حتى ذلك العهد على أنه يتزوج إكمالاً لدينه بعد إذ راض نفسه في عنفوان الفتوة، على ما يروض عليه الزاهدون أنفسهم من قهر الشهوة، وأنه لم يمتنع عن الزواج من قبل إلا إيثارًا لطلب الحديث، وكان مسفارًا لا يستطيع العدل لو خلف أهله في إبان رحلاته ولا يستجيز المجازفة إن هو خلف بنين يلقي تبعاتهم على من دونه، فلما طاب نفسًا بما اجتمع له من العلم قنع بالمقام في دار السلام وتزوج، وجلس للتحديث، في وقت واحد. فقضى الحقوق جميعًا للنفس وللدين وللأسرة.

* * *

وفقه أحمد فقه الرحمة. فهو رجع الصدى لأصوات الفقراء والمستضعفين ومنهم الجياع في عام المجاعة، والذين لا مأوى لهم، والفقراء الموقوف عليهم، والفقراء من الأقرباء، وفيه البحبحة للمضيق والحدب على الضعيف، وفيه الشدة للمحاسبة على أداة الزكاة لمستحقيها، والاحترام الواجب للمال العام، والسهر الواجب على حقوق القصر، وفيه الإعلاء للمكرمات، والمساواة بين الناس مع التنديد بالاستهتار، ولا يتسع المكان في هذا المقام إلا لأمثال:

١- يسأل أحمد عن حديث: "لا يقطع اليد في عذق(٥٥) ولا عام سنة" تقول به؟ فيجيب: أي لعمري.. إذا حملت المجاعة على ذلك والناس في مجاعة وشدة وهذا نحو قضية عمر في غلمان حاطب (٥٦).

---

(٥٤) يمكن القول في شأن الزواج – إجمالاً – أنه يتبع حالات الأشخاص ظروفهم، وهو فرض على المسلم – أي مطلوب حتمًا بدليل قطعي، أي بآية أو بحديث متواتر عند الحنفية – إذا قدر على المهر والنفقة وسائر واجبات الزوجة وتيقن من حال نفسه أنه إذا لم يتزوج زنى. أو واجب – أي مطلوب حتمًا بدليل ظني، كالحديث غير المتواتر عند الحنفية – إذا قدر على كل حقوق الزوجة وخاف أنه إذا لم يتزوج زني. أو مندوب – أي مطلوب بغير تحتيم – إذا كان قادرًا على كل واجبات الزوجة، لكنه في حالة اعتدال لا يخاف أن يزني إذا لم يتزوج. وهو مكروه تحريمًا – الكف عنه غير حتم ولا يستحق قاعدة العقوبة وقد يستحق اللوم – إذا خاف ولم يتيقن أن يظلم زوجه إذا تزوج. أو محرم – الكف عنه مطلوب حتمًا، بدليل قطعي – إذا تيقن أنه إذا تزوج ظلم ولم يقم بواجبات الزوجة.

٢- وهو يجيز إجبار المالك على أن يسكن عنده من لا مأوى له، وصاحب الخان على إيواء النزلاء مع الخلاف في دفع المقابل، والذين أباحوا المقابل حدوده بأجر المثل.

٣- ولا يرى زكاة في غلة وقف على الفقراء زيادة منه لحقوق هؤلاء. فإن كان الوقف لغير الفقراء وجبت الزكاة.

٤- ويزيد حقوق الفقراء إذ يوجب الزكاة في مال الصبي والمجنون في حين يرى البعض أنها لا تحب إلا على البالغ العاقل.

٥- ولما سقف سطح لدار أحمد فجعلوا سيل الماء إلى الطريق دعا النجار فحول الميزاب إلى داخل الدار. فهذا بعض إماطة الأذى عن الطريق وهو أدنى شعب الإيمان كما يقول الرسول عليه السلام.

قدم على عمر مسك من غنائم البحرين فقال: لوددت أني أجد امرأة جيدة الوزن تزن لي هذا الطيب. قالت امرأته (عاتكة بنت عمرو بن نفيل) إني جيدة الوزن فهلم أزن لك – قال لا. أخشى أن تأخذيه هكذا – وأدخل أصابعه في صدغيه – وتمسحين عنقك فأصيب فضلاً عن المسلمين.

---

(٥٥) العذق – جامع شماريخ النخلة التي يكون فيها الرطب أو النخلة بحملها. والعذق يطلق على نوع من التمر. والسنة الجدب. يقال: سنة سنهاء – جدباء.

قيل إن الشدة التي تدعو السارق إلى ما يسد به رمقة في عام المجاعة يقابلها وجوب بذل صاحب المال للسارق بالثمن أو المجان على خلاف في ذلك وقيل إن الصحيح بذله مجانًا لوجوب المساواة في إحياء النفوس مع القدرة على ذلك والإيثار بالفضل مع ضرورة المحتاج، وهذه شبهة قوية تدرأ الحد بقطع اليد عن المحتاج وهي أقوى من كثير من الشبه التي يذكرها بعض الفقهاء.

(٥٦) الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول – المؤلف ٢٦٦.

٦- وفي حين يقول البعض لا قصاص في الضربة واللطمة – وإنما فيهما التعزيز – يرى أحمد المساواة: لطمة بلطمة وضربة بضربة. لقد لطم أبو بكر رجلاً يومًا ثم قال له اقتص – فعفا الرجل.. وقال كميل بن زياد: لطمني عثمان ثم أقادني فعفوت. وأفاد على من لطمة.

ولما راجع عمرو بن العاص عمر في القصاص من الأمير – إذ ضرب رعيته – قال عمر: لأقصنه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه.

ولا يرحم أحمد خريعًا أو مخنثًا أو مستهترًا.

٧- فيرى نفى المخنث إلى أي بلد يأمن الإمام فساد أهله. فإن خاف فساد البلد المنفي إليه حسبه.

٨- وتمر به جارية عليها قباء كالرجال فيستوحش منها فيسأل أتكرهه؟ فيجيب: كيف لا أكرهه جدًا!!

٩- ويرى شارب الخمر في رمضان مستحقًا لأن يغلظ عليه الحد مثل الذي يقتل في الحرم تستحق عليه دية وثلث.

١٠- ويرى أن يخفي صاحب القرابة السكران.

١١- ومن الأقوال في مذهبه أن الغيبة والنميمة تفطر الصائم. والرسول عليه السلام يقول: "من لم يدع قول الزور فليس لله حاجة في طعامه أو شرابه" ومن العلماء من يراهما ينقضان الوضوء.

١٢- وأصحاب أحمد يعاقبون صاحب الثوب المغشوش بتمزيقه وصاحب الطعام المغشوش بإتلافه أو التصدق به إن صلح. ويعاقبون أصحاب الخمر بشق ظروفها وكسر دنانها

كمثل ما صنع عمر بتحريق كل مكان يباع فيه الخمر وأمر النبي بتحريق الثوبين المعصفرين وحرق موسى عجل السامري.

١٣- ويسأل أحمد عن تقبيل المصحف فيقول: "ما سمعت فيه شيئًا ولكن روى عن عكرمة بن أبي جهل أنه كان يفتح المصحف ويضع وجهه عليه ويقول: كلام ربي. كلام ربي".

١٤- ويكره أحمد كتابه القرآن على ستر منصوب، ويكره الكلة فهي رياء لا ترد من حر ولا برد.

١٥- ويرى آنية الفضة فيخرج، ولا يطعم، هو وصحبه، من بيت صاحبه عفان (٥٧).

١٦- ويكره البيع والشراء في المسجد والالتجاء من المطر إلى المقابر تقديرًا لها. فهي من الآخرة.

ويبلغ أحمد الغاية بحديث الرسول عليه السلام: "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس".

١٧- فالذي يعامل بالربا لا يؤكل عنده، والدراهم الثلاثة لا يؤكل منها إذا كان منها واحد حرام لا يعرف، ويحتج بحديث عدي بن حاتم حين سأل الرسول عليه السلام: "إني أرسلت كلبي فأجد معه كلبسًا آخر فقال لا تأكل حتى تعلم أن كلبك قتله".

(٥٧) وذات يوم ذهب الرسول يزور بنته فاطمة ولكنه عدل فبعثت عليًا يسأل عن سبب عدوله فقال: (رأيت على بابها سترًا موشيًا) فعاد إليها علي بقوله: قالت ليأمرني فيه بما يشاء. فقال ﷺ: (تبعث إلى فلان.. أهل بيت بهم حاجة) ثم تكررت الزيارة والعدول والسؤال فأجاب: (إن في يديها سوارين من فضة) فأرسلتها إليه فباعهما بدرهمين ونصف.

obeikandi.com

١٨- ومن أجل الحلال يعف أحمد عن أن يشارك في شبهة تحدثها المنافسة غير المشروعة. جاءه من اشترى له باقلاً بمقدار لا يتناسب مع الثمن بعث يشتري به فقال: هذا كثير – قال الذي اشتراه له: كان باقلانيان يبيعان مضارة رخيصًا. قال: ردوها وادفعوا الخبز والباقلا ودعوا القطعة عليه.

١٩- فإذ شك فسر الشك ضد مصلحته، رهن سطلاً عند بقال لقاء شيء يتقوت به فلما عزم فكاك الرهن أخرج البقال إليه سطلين وقال أيهما سطلك؟ فقال أحمد. لا أدري أيهما لي.... أنت في حل من سطلي ومن المال. وهكذا دفع الدين وترك السطلين. وظهر من بعد، أن البقال كان يمتحن ورع أحمد.

٢٠- ويوجب أحمد على رفاء الوسائل والأنماط – وهو يرفو للتجار الذين يبيعون ولا يخبرون أن أشياءهم مرفوة – أن يعمل العمل الذي يبين ولا يعم الخفي إلا لمن يثق أنه لا يخدع الغير به.

٢١- وورع أحمد مطلق، نابع من الفطرة، والرحمة وجه جميل له، فهي كاملة وشاملة، وعلى ذلك فليس الإنسان وحده هو الجدير بالرحمة.

كان معه أبا بكر المروزي في طريقه إلى العسكر حيث الخليفة المتوكل يدعون ليحتفي به فتركا الحاشية وألوان طعامها إلى حيث وضع أبو بكر رغيفًا وكوز ماء وجلس إمام المسلمين يأكل. فأغرت هشاشة وطمأنينة ذاته كلبًا من الطريق. فأقبل يلتمس من الرحمة نصيبه، ودنا فحرك ذنبه، فألقى إليه أحمد لقمه وجعل الطرفان يأكلان، فيلقى أحمد إليه لقمة لقمة.. وخاف خادمه وتلميذه أن يضر بقوته، وكله هذا الرغيف، فنحى الكلب من بين يديه.. واحمار وجه أحمد من الحياء ومع ذلك لم يعز تلميذه في الخطاب، وقد ظهرت له حاجته لمزيد من العلم، فاكتفى بأن قال له: دعه فإن ابن عباس قال: لها أنفس سوء.

openkandil.com

٢٢- حتى الدودة يرحمها في معرض استعمال الحقوق. يسأل عن تشميس دود القز ليموت في نسيجه كيلا يقرض ما عليه من الفز. فيقول: "إذا لم يجدوا منه بدًا ولم يريدوا بذلك أن يعذبوه بالشمس فليس به بأس"، فهو ينهي عن التعذيب أصلاً ولا يبيح تعريض الدود للشمس إلا لضرورات الصناعة.

وأحمد يبني هذا الفقه الإنساني الرفيع على حديث يرويه عن الرسول: "من قتل عصفورًا عبثًا عج إلى الله عز وجل يوم القيامة. يقول: يا رب قتلني عبثًا ولم يقتلني لمنفعته"

وهو – صلى الله عليه وسلم – لا يعلم المسلمين بحديثه فحسب بل هو يعلم الوجود كله بصنيعه يوم رأى وهو يقود جيوش المدينة إلى مكة كلبه على ماء الطريق تهر أولادها وهن يرضعنها، فأمر رجلاً من الصحابة بالقيام حذاءها حتى لا يعرض أحد من الجيش لها أو لجرائها – فهو يكلؤها من الجيش ويستودعها وجراءها صاحبه، ولا يصرفه عن الرحمة ضخامة الفتح المبين لمكة.

وهو القائل "دخلت النار امرأة في هرة لم تطعمها ولم تدعها تأكل من حشائش الأرض".

والقائل: "إن الله غفر لامأة مومسة مرت بكلب على رأس ركى يلهث يكاد يقتله العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء. فغفر لها بذلك".

ورع الطريقة

حسبنا في هذا الباب أمثال من روع الشيخ إذ يجالس تلاميذه أو يقارب أصول فقهه. وفيها دلالات واضحة على التصون في تناول الأمور بالحلقة حيث يزين الورع المجلس العلمي، وعلى الاحتياط الجليل في تداول الأصول من سنة الرسول وأقوال صحبه.

١- حملت إلى أخ الحسن بن عبد العزيز الجروي (٢٥٧) (٥٨) من مواريث أبيه بمصر مائة ألف دينار فحمل منها إلى أحمد ثلاثة آلاف دينار، ونوه بأنها ثلاثة آلاف. فقام الشيخ من مجلسه وتركه وتهدده بالحرمان من مجالسته وقال له: إذا كان لك حاجة لا تجيء فإذن أردت أن تأل عن شيء فأرسل إلي.

٢- وأهدى رجل هدية لولده صالح بمناسبة ميلاد له، وطلب المهدي من أحمد أن يكتب توصية إلى مشايخ البصرة فقال أحمد: لو لم يكن أهدى لصالح كنت كتبت.

٣- يقول لمن يستأذنه في أن يمل من محبرته ليصلح حرفًا أو شكله: اكتب يا هذا فهذا ورع مظلم، في حين يرى أحمد بأسًا أن يمل – هو – من محبرة تلميذ له.

وأخذ الأشياء، وإن هانت، باب لو فتح على التلامذة لتأذى منهم الكثير زلفى إلى الأساتذة، وتعرض المتعلم إلى أن يكون مأكله.

وتعبير أحمد بالورع المظلم، أو الأحمق كما سبق في شأن العطشان لا يشرب، تعبير وضيء يحاكى بلاغة عمر يوم سمع أن رجلاً وجد تمرة فصار ينادي عمن فقدها

---

(٥٨) عبد العزيز الجروي (٢٠٥) أحد القواد العرب بمصر. استقل عن الدول ببغداد استقلالاً فعليًا بما سمى مملكة الساحل وكانت تشمل الدلتا بين بورسعيد (الآن) والإسكندرية وصارت عاصمته تنيس (قريبًا من بورسعيد) مركزًا تجاريًا كبيرًا في البحر الأبيض المتوسط يرابط حوله ألف سفينة للتجار وللسلطان.

ويكرر النداء – يود لو يطلع الناس على زهده – فعلاه عمر بالدرة. وقال: كلها يا بارد الورع.

ولما رأى عمر رجلاً يتماوت ليظهر نسكه خفقه بالدرة وقال: لا تمت علينا ديننا أماتك الله.

٤- وأحمد يعلم التلاميذ الورع في شأن أهل الورع، حضاريًا وغيابيًا.. ذكر إبراهيم بن طهمان (٢٥٨) ذاكر، وأحمد متكئ، فاستوى. وقال: لا ينبغي أن يذكر الصالحون فيتكأ... وكانت لإبراهيم جراية كبيرة من بيت المال لكنه كان يفرق في الناس كل ما يأخذ ويتورع في العلم – سئل يومًا في مجلس الخليفة فقال لا أدري فقالوا: تأخذ في كل شهر كذا وكذا ولا تحسن مسألة! فأجاب: أنا آخذه على ما أحسن، ولو أخذته على ما لا أحسن لفنى بيت المال علي.. ولم يفن ما لا أحسن.

٥- ويتناول أحمد سنة الرسول والصحابة بورع يليق بالأصلين اللذين بني عليهما الفقه. ومن ذلك ما سلف من أنه لا يقبل الحديث إلا بإسناد وإيجابه على المحدثين أن يعملوا بما حدثوا به.

٦- ومن ذلك أنه لا يحدث عن الرسول من ذاكرته. روى عنه ابنه عبد الله بالمسند نحو الأربعين ألف حديث. وهو يقول: حديث أبي من غير كتاب بأقل من مائة حديث!!

٧- ومن الورع يأخذ أحمد الحديث الواحد من ستة أوجه أو سبعة ليستقيم له أمره ويقول "نحن كتبنا الحديث من ستة وجوه ومن سبعة وجوه لم نضبطه. كيف يضبطه من كتبه من وجه واحد".

openkandil.com

والإسناد خصيصة هذه الأمة تحريًا لأصول علمها وتاريخها وتصحيحًا له حتى لا يقوم، كتاريخ الإغريق، على الأساطير... وإنما أحوج الأمة إلى الإسناد عدم التدوين في القرن الأول. وطلب العلو في الإسناد سنة، ولذلك استحبت الرحلة.

وأجل الإسناد القرب من رسول الله ﷺ ثم القرب من إمام من أئمة الحديث.

روى موسى بن حزام أنه كان يختلف إلى أبي سليمان الجرجاني ليتلقى عنه كتب محمد في فقه أبي حنيفة فاستقبله أحمد بن حنبل فقال: العجيب أنكم تركتم ثلاثة يبلغون بكم رسول الله ﷺ وأقبلتم على ثلاثة يبلغون بكم أبا حنيفة.

قلت كيف يا أبا عبد الله؟

قال: يزيد بن هارون يحدث الناس بواسط عن حمد عن أنس عن رسول الله وصاحبك أبو سليمان بحديث عن محمد بن الحسن، عن يعقوب (أبي يوسف)، عن أبي حنيفة.

قال موسى: فوقع في قلبي واكتريت زورقًا وانحدرت إلى واسط فسمعت من يزيد ابن هارون.

وتوارثت أجيال العلم إكبار العلو في الإسناد.

قال ابن العميد: ما كنت أظن في الدنيا حلاوة إلا من الرياسة والوزارة التي أنا فيها حتى شهدت مذاكرة سليمان بن أيوب بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجعابي يحضرني. كان الطبراني (٣٦٠) يغلب الجعابي (٣٥٥) بكثرة حفظه، وكان الجعابي يغلب الطبراني بفطنته وزكانة أهل بغداد.. حتى ارتفعت أصواتهما ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابي: لديّ حديث ليس في الدنيا إلا عندي. قال الطبراني: هاته. قال: حدثنا أبو خليفة، حدثنا سليمان بن أيوب حدثنا... وحدث الحديث. فقال الطبراني: "متى سمع أبو خليفة فاسمع مني حتى يعلو إسنادك فإنك تروي عن أبي خليفة عني" فخجل الجعابي.

ويقول ابن العميد: "فوددت في مكاني أن الوزارة والرياسة لم تكن لي وكنت الطبراني". والطبراني من تلاميذ أحمد الفكريين – له معاجم ثلاثة. وأبو بكر الجعابي شيعي كثير الغرائب مشهور بالورع.. أوصى بحرق كتبه جميعها فحرقت بعد موته.

٨- ويبلغ أحمد أن عبد الله بن موسى العبسي يقدم عليًا على عثمان كما يبلغه قدحه في معاوية فيمزق ما يحمل عنه ولا يحدث عنه بشيء. ومع ذلك لا يقبل بحال أن يتأخر على عن مكانه.

٩- فإذا سأله سائل: يقولون إنك وقفت على عثمان، قال كذبوا والله. على. وإنما حدثتهم حديث ابن عمر: "كنا نفاضل بين أصحاب رسول الله ﷺ أبي بكر وعمر وعثمان فيبلغ ذلك النبي ﷺ فلم ينكره" أي أن المناضلين لم يدخلوا عليّا في الموضوع. بل إن أحمد يعلن بصريح القول أن من وقف على عثمان ولم يرجع عليه السلام فهو على غير سنة.

١٠- وهو يجوز الصلاة على غير النبي مثل قول: اللهم صل على أبي بكر أو عمر أو علي، مفردًا. فهذه دعوة وتحية، لأن عليًا قال لعمر ذات مرة صلى الله عليك. لكن أحمد لا يجيز إفراد واحد من الصحابة أو القرابة بذلك؛ لأن في الإفراد مضاهاة لشخص النبي، وهو بالطبع يمنع إفراد علي بالصلاة عليه دون سائر الصحابة كما يصنع الشيعة.

١١- ويرى أحمد أن من طعن في الصحابة فليس للسلطان أن يعفو عنه بل يعاقبه ويستتيبه وإلا أعاد عليه العقوبة.

١٢- جاءه يومًا جماعة فذكروا خلافة أبي بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان فأكثروا. وذكروا خلافة علي بن أبي طالب وزادوا فأطالوا. فرفع رأسه إليهم قال: يا هؤلاء قد أكثرتم

open4kandil.com

القول في علي والخلافة، والخلافة وعليّ. إن الخلافة لم تزين عليًا بل عليّ زينها، وسمع بعض الشيعة (٥٩) هذه الكلمات فقال قائلهم: قد أخرجت نصف ما كان في قلبي على أحمد بن حنبل من البغض.

---

(٥٩) تنازل الحسن بن علي عن الخلافة على أن يكون الأمر شورى للمسلمين بعد معاوية، لكن معاوية أخذ البيعة من الأمة لابنه يزيد من بعده والسيف على أعناق أبناء الصحابة، ثم خرج الحسين بن علي على يزيد إذ ولى الخلافة بعد أبيه فقتل ومن معه في كربلاء واندلعت نيران الكراهية لبني أمية من جراء مقتل الحسين وبخاصة في قلوب شيعة علي وكانوا يأوون إلى ركن شديد في العراق وفارس حيث بني الحسن بإحدى بنات يزدجرد فوضعت له عليًا زين العابدين. وساعدت كراهتهم خلافة بني أمية بالشام على التشيع لعلي، وامتزجت بآرائهم في الخلافة عقائد الفرس السياسية قبل الإسلام ومنها الحق الإلهي للملوك يتوارثون الملك، ومنها أن السلطان ظل الله على الأرض.

وقتل بنو أمية زيد بن علي زين العابدين ثم يحيى بن زيد سنة ١٢٥ وقتلت جيوش العباسيين محمد بن عبد الله بن الحسن وأخاه إبراهيم، وجمع المنصور أهليهما إلى أبيهما في دار خرت عليهم. فماتوا أجمعين. وقتل الرشيد موسى الكاظم ولما ولي المأمون الخلافة اعتنق المذهب الشيعي وولى عهده عليًا الرضا لكن عليًا مات بغتة سنة ٢٠٢.

وصار أنصار علي شيعًا. منها الغلاة الذين ألهوه. متابعين عبد الله بن سبأ، والآخرون أجاؤه بعد النبي مباشرة ونازعوا الجمهور في أمور شتى منها العبادات، والخلافة، والمعاملات، والميراث، والزواج، وتلقى السنن – والشيع كلها مجمعة على أن الإمامة لعلي بعد النبي وأن كان الزيدية يحسنون القول في الشيخين أبي بكر وعمر ويعتبرون ما كان من خلافتيهما. وهم جميعًا ينقلون الخلافة بعد على إلى ولديه الحسن والحسين ثم ينقسمون أقسامًا. فالبعض ينقلها من بعد الحسين إلى محمد بن الحنفية أخي الخسين من غير فاطمة الزهراء، ثم يقف بعض هذا القسم عند محمد بن الحنفية وآخرون يقفون بها عند ابنه أبي هاشم ثم ينقسمون فرقًا منهما الفرقة التي زعمت أن الإمامة انتقلت من أبي هاشم إلى بني العباس وصيه أوصاها أبو هاشم إلى محمد بن عبد الله بن العباس وتسلسلت من محمد إلى ولديه السفاح والمنصور (أبي جعفر) فسائل خلفاء بني العباس والآخرون منقسمون. فمنهم من ينقلها من الحسين إلى ابنه علي زين العابدين، فابنه محمد الباقر فابنه جعفر الصادق ثم ينقسم هذا القسم فمنه الإمامية الإثنا عشرية يسلسلن أئمتهم اثنى عشر إمامًا حتى المهدي المنتظر، ومنهم الإسماعيلية ومنهم الدولة الفاطمية يزعمون للشريعة باطنًا لا يعلمه إلا الإمام ويزعمون أن الإمام مستور وزعيمهم الآن أغاخان.

وقامت دول شتى للشيعة منها دولة في طبرستان. بل في بغداد (بنوبويه) وفي أفريقيه الفاطميون والأدارسة. والإمام عندهم ليس مجرد خليفة للرسول أو أمير للمؤمنين في حفظ الدين بل هو القيم على الناس والمعصوم

١٣- وسأله تلميذ له من الخلفاء؟ فقال أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. قال السائل فمعاوية؟ قال أحمد: لم يكن أحد أحق بالخلافة في زمن علي من علي ورحم الله معاوية.

١٤- ولما ذكر عنده سير عائشة مع طلحة والزبير قال: فكرت في طلحة والزبير. أهما كانا يريدان أعدل من علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين.

فهو لا يذكر أم المؤمنين بكلمة، ويعجب لمن يطلب عدلاً فوق عدل أمير المؤمنين علي، ولا يجيب عن معاوية بل يطلب له الرحمة، ويطلب الرضوان لهم جميعًا.

١٥- ولما جاءه رسول المتوكل يسأله فيما كان بين علي ومعاوية أجاب: ما أقول فيهم إلا الحسنى. وسأله أحمد بن الحسن الترمذي عما كان بين علي وطلحة والزبير وعائشة فأجاب: "من أنا حتى أقول في أصحاب رسول الله ﷺ؟ كان بينهم شيء الله أعلم به" وهو في جوابيه يعلم الناس السنة فالنبي نهى عن التفضيل بين الأنبياء وعن تفضيله علي يونس ونحو ذلك من الكلام الذي قد يفضي إلى فتنة في القلب. وينبغي ألا نخبر بين الأموات إلا لحاجة. وأولى الناس بذلك الصحابة الذي أمرنا بالاستغفار لهم وألا نجعل في قلوبنا غلا لهم.

ولقد بنى أحمد مسائله في قتال أهل البغي على سيرة على. ولما أنكر ذلك يحيى ابن معين على الشافعي صاح فيه أحمد. ويحك. فما عسى أن يقول في هذا إلا هذا.

والوارث لعلم النبي. يقولون إن عليًا كان وصي النبي وإن الإمام ممتاز من بين البشر لما فيه من قبس إلهي يتسلسل من محمد لعلي فبني علي يقولون إن الإمام هو المشرع الوحيد.

الوعظ والقصص والبدع:

والذين ينذرون أنفسهم لتعليم الإنسانية، لا يقفون عند بسط الفلسفات لها، فمن النجاح العظيم أن تنزل الحقائق العلمية إلى الجماهير ومستوى تذوقها، ولذلك كان أحمد يستمع إلى القصص السليم من منبر الوعظ والإرشاد ويقرر نفعه للمسلمين لما يه من ترقيق للقلوب وتذكيره بالآخرة، والجماهير مجال فسيح مفتوح لكل مصلح.

وكان الوعاظ من صور عصرهم.. منهم الذين يعظون الخلفاء فيخضل الدمع لحاهم ومنهم قصاص يعظون الناس بالسيرة والفقه، لكن منهم الذين يطلقون الأعنة للأخيلة، يتخيلون ثم يخالون أو يشبهون ويحسمون أو يلهون الأذهان بالتزويق والتلفيق. أو تأويل الحديث والقرآن. أو يعظون بأحاديث موضوعة.

ويحيى وبشر وأحمد علماء ثلاثة يمثلون العلم مجردًا من التطبيق. والعلم الذي يخاف الزاهدون عليه ويزهدون في معالجة الناس به، والعلم الذي يسمو الخاصة إلى مستواه وتنزل أشكال منه إلى العامة ليتفهموه ويعملوا به، في شريعة تفرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة.

وبهذا التمثيل يختلف الثلاثة في المسألة فيحيى بن معين وبشر الحافي حرب على القصص والقصاص. يقول الفضل بن مهران قلت ليحيى بن معين: أخ لي يقعد إلى القصاص قال: أنهه. فقلت: لا يقبل. قال: عظه. قلت لا يقبل الهجرة. قال: نعم – فأتيت الإمام أحمد بن حنبل فذكرت له نحو ذلك فقال: قل له يقرأ المصحف ويذكر الله تعالى في نفسه ويطلب حديث رسول الله ﷺ فإن هذا الاجتماع محدث. قلت: فإن لم يقبل أأهجره؟ فتبسم وسكت.

وسأل الفضل بشرًا عن مسألة من علم القلوب فتوقف بشر ثم أجاب، فسأله مسألة من علم المعاملات فسكت بشر، ثم نظر إليه وسأله من تجالس؟ قال.. فقال بشر: ألا تستحي أن تسألنا عن علم القلوب وتجلس إلى القصاص؟ وأعرض عنه.. حتى أحدث الناس بينهما صلحًا واعتذروا عنه عند بشر بقولهم إنه لا بأس به. إنه من أهل السنة!

أما أحمد فصاحب أسلوب تطبيقي مصلحي. يقول بصريح العبارة: "ما أحوج الناس إلى قاص صدوق لأنهم يذكرون الميزان، وعذاب القبر". ولما سئل أنت تحضر مجالسهم؟ قال: لا.

وصلى مع عمه إسحق مرة صلاة العيد فإذا قاص يلعن المبتدعة ويذكر فضل أهل السنة فقال لعمه: "ما أنفع القصاص للعامة، وإن كان عامة ما يحدثونه كذبًا".

فهو يقدر المصلحة بمقدارها فلا يوصي بهجر الواعظين، وهو يحرص على إعلان ما في عملهم من نفع للجماهير – وما أكثر من يعبدون الله فيها – وهو لا يهدر عمل القصاص بتمامة من أجل فئة منهم، فليس يعيب العلم أو الأدب بعض العلماء والأدباء، كما لا يعيب الصناعات عيوب صناعها، فالذي يلهى عن الدين وحده المكروه.

وبشر كيجي يعبان القصاص بإطلاق. أما أحمد فيوقع الحكم بمقدار المصلحة في الحياة الواقعة... وهذا من الفقه [٦٠]. ولا غرو فيحيى إمام المحدثين يعمل في حقول الجرح والتعديل

---

(٦٠) استحدث نظام القصص في صدر الإسلام فأذن عمر لتميم الداري الصحابي أن يذكر الناس في يوم الجمعة ثم أذنه عثمان أن يذكر الناس يومين في الجمعة. ونما القصص بسرعة لحاجة الناس إليه وداخله الاختلاق حتى رووا أن علي بن أبي طالب طرد القصاص من المساجد واستثنى الحسن البصري لتحريه، وكان مجلسه مجلس ذكر لله فيه توحيد وفقه ومن سامعيه مالك بن دينار وأيوب السختياني ومحمد بن واسع وفرقد السنجي.

ويروي ابن لهيعة أن أمير المؤمنين عليًا قنت فدعا علي قوم من أهل حربه لما انصرف من صفين فبلغ ذلك معاوية فأمر رجلاً يقص بعد الصبح وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام في المساجد والمعسكرات.

وهذه قصص الخاصة وهو وظيفة يوسدها ولي الأمر إلى من يصلح لها حتى كان من قضاة مصر يعينون قصاصًا كسليمان بن عتر التجيبي أول قاض ضم إليه القصص سنة ٣٨.

والليث بن سعد (١٧٥) يقول في القصص: (هما قصصان – قصص العامة وقصص الخاصة فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع إليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم فذلك مكروه لمن يفعله. ولم استمعه. وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية. ولي رجلا على القصاص فإذا سلم من صلاة الصبح جلس يذكر الله عز وجل وحمده ومجده ﷺ ودعا للخليفة ودعا على أهل حرية وعلى المشركين كافة".

لكن قاص العامة الذي يحسن الوعظ ولا يبتدع يلقى قبولاً من الأمة وبذلك كان عمر بن عبد العزيز يجلس إلى قاض العامة ويدعو معه، ولما علم أن قاصًا يدعو للخلفاء والأمراء نهاه وطلب أن يدعو للمؤمنين. ولما دخل مصر كان على القصص أبو رجب بن عاصم يصلي بالناس فصلى وراءه وأثنى على صلاته.

وربما كان فيصل التفرقة بين القصص المكروه وبين فقيضه أن يلهى القصص عن الدين أو يكون فيه مراء أو تلخيط. فهذا هو المكروه – أما القصص أو الوعظ بالدين أو بالعلم أو بالتاريخ أو بالأدب مع الصحة

والصحة والبطلان وحدها. وبشر إمام في الزاهدين المنقطعين. لكن أحمد كان إمامًا في الحديث والزهد معًا.. وكان مسئولاً عن تعليم الأمة الحديث والزهد والفقه جميعًا.

* * *

سئل أحمد رجل أكل فشبع فأكثر الصلاة والصيام – أو رجل أقل الأكل فقلت نوافله وكان أكثره فكرة؟ فذكر ما جاء في الفكرة: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة".

وهو يعول على إخلاص النية وحده، وهذا أولى في علاقات العبد بربه، ولا يرضى عن الطقوس والتكلف والتواجد والتماوت أو اتخاذ المظاهر والهيئات مما لم يسمع بمثله عن السلف الصالح. والزهادة قوامها الترك والصبر والعبادة خضوع وشكر، والتظاهر يخرج ذلك كله من حقائقه.

كان الحادث بن أسد المحاسني (٢٤٣) البغدادي من المتكلمين، وهو شيخ كثير من المتصوفين ومنهم الجنيد، تعلم على يد يزيد بن هارون وطبقته، خلف له أبوه مالاً كثيرًا فرده وكان محتاجًا إلى دانق. وله كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانة منها كتاب مشهور هو (الرعاية لحقوق الله) وكان يعقد مجالس للذكر في داره ودور أصحابه فسمع أحمد عنها، فطلب أن يراهم من حيث لا يرونه فدعهم تلميذ له إلى داره.. وسأل واحد من الجلساء الحارث سؤالاً فأفاض الحارث في الجواب والسامعون كأن على رءوسهم الطير، منهم من يبكي ومنهم من يجن، ومنهم من يزعق. حتى أحمد في مخبئه بكى وغشى عليه من البكاء. فلما انفض المجلس قال أحمد

والصدق دون تشبيه أو تجسيد أو مقولات زيوف ففيه نسائم الهواء النقي من الوعظ المفيد بفضائل الدين والنقد النزيه لعيوب الجماعة واستخراج العبرة من سنن الكون وصنيع السلف الصالح. وحسب القصص الإسلامي ووعظه دلالة على الصحة وعظم الجدوى أن تكون حلقة الحسن البصري من طلائعه وأن يتتابع عليه الإعلام كأمثال الفضيل ابن عباس وابن السماك.

والقصص في المجتمع المعاصر نوع مختلف تمامًا لا يتغيا غايات الوعظ الديني ولا يستعمل نصوصه أو سيره أو منابره، بل هو أسطوري الطريقة، أدبي الصورة، من عهد اليونان إلى الآن. ومداره على الرواية بفنونها المختلفة بما لها من صورة أدبية وطبيعة خيالية. ومع ذلك أتاح له جلال أثره في الثقافة والمعرفة مكانًا في صدارة قائمة العلوم الاجتماعية والأدبية حتى ليرفعه الروائيون فوق مستوى التاريخ الصحيح، وقد يسبح في تيارهم السياسيون ورجال القانون. فترى روائي فرنسا العظيم (إسكندر ديماس الأب) يثني على كتاب لامرتين شاعر فرنسا وزعيم حكومتها في القرن الماضي" (تاريخ الجيروند) قائلاً إنه "رفع التاريخ إلى مستوى القصص" وترى لويس بارتو رئيس وزراء فرنسا في سنة ١٩٢٢ يقدم لجمهرة القارئين كتاب (قضايا التاريخ الكبرى) لهنري روبير فيكرر كلمة ديماس العجيبة (لقد رفعت التاريخ إلى مستوى القصص) وما يريد إلا التعبير عن بعض خصائص القصص من حسن قول الناس ونفاذ العبرة إلى الأنفس وجمال التصوير والتعبير.

لتلميذه: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل لكنه أضاف: ولا أرى لك صحبتهم.

قالوا: كان للحارث عرق في بعض أصابعه إذا مد يده إلى ما فيه شبهة صرف العرق ينبهه فيمتنع عن الشبهة، وقد حكى الجنيد أنه اجتاز به يومًا فرأى على وجهه زيادة الضر من الجوع فقلت يا عم لو دخلت إلينا فنلت من شيء عندنا. فدخل فعمدت إلى بيت عمي، وكان أوسع من بيتنا لا يخلو من أطعمة فاخرة لا يكون مثلها في بيتنا، فجئته بأنواع كثيرة من الطعام فوضعته بين يديه فمد يده فأخذ لقمة فرفعها إلى فمه فرأيته يلوكها ولا يزدردها فوثب وخرج فلما كان الغد لقيته. قال: يا بني أما الفاقة فكانت شديدة.. ولكن بيني وبين الله علامة إذا لم يكن الطعام مرضيًا ارتفع إلى أنفى منه زفرة فلم تقبله نفسي. فقد رميت اللقمة في الدهليز وخرجت.

وسيهجر أحمد الحارث لأنه من المتكلمين [٦١] فيزور عنه الجمهور. فيختفي في داره ببغداد ليموت في سنة ٢٤٣ – بعد موت أحمد بعامين – فلا يصلى عليه إلا أربعة نفر.

* * *

---

(٦١) الكلام علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع، بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات. وقد نشأ لأسباب خارجية وداخلية من الجماعة الإسلامية.

أما الخارجية فجملتها الدفاع عن الإسلام ضد غير المسلمين والمسلمين الكثيرين ممن أسلموا وظلوا يفكرون في أمور الدين على أساس دياناتهم القديمة وما داخلها من عقائد الفرس، وفلسفة الإغريق، والزندقة، وما إليها واحتاج الدفاع عن الإسلام إلى تأصيل المسائل وفلسفتها ليجادلوا أعداء الإسلام بمثل حججهم، وقد عرف كثير منهم الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني واللاهوت واستعملوها ضد خصوم الإسلام. وأما الداخلية فتتداول أمورًا في عقائد المسلمين فالقرآن يتكلم عن الإيمان والكفر والشرك بأمر المسلمين بالدعوة للإسلام، وبالجدال بالتي هي أحسن، والإيمان بالقدر خير وشره والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقام المتكلمون بالبحث في الجبر والاختيار وفي الخلافة والإمامة وأمثال ذلك. ثم راحوا يؤولون الآيات القرآنية التي رأوا تأويلها فجرؤوا على ما لم يجرؤ عليه سواهم – مثل تأويلهم آيات الجبر، والآيات التي تشير إلى المكان والرؤية. واستطار الخلاف بينهم وبين المحدثين ومعهم الجمهور الذي يؤمن بالآيات كما نزلت فالله سبحانه وتعالى (ليس كمثله شيء) وهو كما وصف نفسه. وقد درج أصحاب الرسول على ترك التعرض لهذه المسائل وهؤلاء صفوة الإسلام فالتعرض لما لم يتعرضوا له بدعة.

وأحمد عدو للبدع وللمظاهر. لا يتزيا بزي النساك، ولا تعجبه الصلاة في جلود الثعالب. يقول لتلميذه عن قراءة القرآن بالألحان إنها بدعة فلا تسمعه. ويقول: كل شيء محدث فلا يعجبني إلا أن يكون صوت رجل لا يتكلفه، ويسأل عن الهمز في القرآن فيقول: تعجبني القراءة السهلة.

ولا يرى بناء القبور مرتفعة – يسأل: مرتفعة أحب إليك أم مسنمة فيقول "مثل قبور أحد" أي أتربة مرتفعة.

ولا يرى شد الرحال لزيارة القبور فذلك عمل لم يعمله الصحابة أو التابعون.

ولا يرضى عن سياحة الطوافين بالبلاد في أسماهم إظهارًا لزهدهم. فالزهد خليق بأن يصحبه عمل وأخلق به ألا يصحبه تظاهر. وليس الهراب من المجتمع زهادًا يقول: "ليست السياحة من الإسلام في شيء ولا من فعل النبيين ولا الصالحين".

وقيل إن الصوم ضربان الأول ترك المطاعم وما إليها، والثاني حفظ الجوارح عن المعاصي كالبصر واللسان والسمع – والسائح هو الذي يصوم هذا الصوم.

أما من ساح في البلاد ومشى في مناكبها ليتأمل آيات الله أو ليأكل من رزق الله أو يتعلم أو يعلم أو يخدم فهو عامل بدينه.

وذات يوم مسح على يد أحمد تلميذه علي بن عبد الله الطيالسي ثم مسح على بدنه فنظر إليه مغضبًا غضبًا شديدًا ينفض نفسه ويقول عمن أخذتم هذا! وأنكره إنكارًا شديدًا.

ودق الباب داق ففتح له. فقال الرجل: سألتني أمي وهي زمنة أن تدعو لها فأجاب مغضبًا: نحن أحوج أن تدعو لنا.

ودخل يومًا على بشر الحافي يعوده وهو مريض فوجد زاهدة تعوده فسأله من هذه؟ قال: آمنة الرملية، بلغها مرضي فجاءت تعودني. قال: فاسألها أن تدعو لنا. فسألها فدعت لهما معًا بقولها: اللهم إن بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من عذاب النار فأجرهما يا أرحم الراحمين".

ويأخذ أحمد نفسه وصحبه القريبين بالشدة في الدين وفي العلم كمثل يحيى بن معين يقاطعه لقوله بخلق القرآن تقية لعذاب المؤامون. كما قاطع الكرابيسي وهو زميله على الشافعي لقوله بخلق القرآن. فسقط ذكره، كمثل ما قاطع أولاده وطعامهم حين قبلوا عطاء الخليفة.

ونفذ أبا ثور (٢٤٠) زميله في العلم على الشافعي وفي معركة الانتصار للسنة لأنه سئل عن معنى قول النبي: عن الله تعالى خلق آدم على صورته فقال أبو ثور – إن الهاء عائدة على آدم. وقال أحمد: ويله وأي صورة لآدم يخلقه عليها. ويله. يقول إن الله تعالى خلق على مثال فأي شيء يعمل في الحديث المفسر: "إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن" فبلغ ذلك أبا ثور فاعتذر وحلف أنه ما قال ذلك عن اعتقاده وإنما هو رأى رآه.

ومن عداء أحمد للبدع سيبدأ بعد قرون إصلاح المجتمع الإسلامي وبخاصة على أيدي ابن تيمية وابن عبد الوهاب.

* * *

يتحدث يحيى بن معين عن زمالة العمر فيقول "أراد الناس منا أن تكون مثل أحمد. لا والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد" فيقول رجل في المجلس: بعض هذا الثناء يا قوم. فإن الرجل ليس بالمكان الذي تقولون، ويرد حسين الكرابيسي نفسه مع ما بينهما من خلاف "مثل الذين يغضون من شأن أحمد مثل الذين يحاولون هدم جبل أبي قبيس بأكفهم". ويقول الرجل "يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم" فيتغير يحيى ين معين، ويصيح أتزعم أن الثناء على أبي عبد الله غلو في الدين؟ يا هذا إن الثناء على أبي عبد الله من أطيب مجالس الذكر".

وربما عرضت صورة أحمد بن حنبل كلمات لمصعب.. بين الزبير جامعة مانعة: "من في ورع أحمد وعبادة احمد، يترفع على جوائز الخلفاء حتى يظن أنه الكبر، ويكري نفسه مع الحمالين حتى يظن أنه الذل، ويقطع نفسه عن معاشرة الناس وغشيان مجالسهم أنسًا بالوحدة،، فلا يراه الرائي إلا في مسجد أو عيادة مريض أو حضور جنازة، ولم يقض لنفسه بعض ما قضينا لنفوسنا من شهوات".

كانت سنوات الحياة تنطوي عامًا إثر عام كما تنطوي الصحف في سجل نسق، متوافقة أو متطابقة، مفصحة عن وحدة الشخصية وإطراد السلوك وانتظام الفكر، في المسألة للمرء قبل أن يقرأه في الكتب؛ لأنه رأى الورع، تلتقي متابعة وتفترق عند حقيقة تخلق فقهه وتشكله. فحواها أن الشيخ شديد فيما يتعلق بحقوق الله، سهل فيما يتعلق بشئون البشر، شديد في التزام الواجب عليه، سهل فيما يتعلق بالتزامات الناس، وبهذا جمعت "الحنبلية" بين الشدة المتعبدة وبين اليسر الذي لا ضريب له.

ولما قدر الشيخ على نفسه قدر على الدنيا، ولما تواضع لله وللناس أتضع السلاطين أمامه واختضع الجبابرة.

ونصعت عناصر الشخصية نصوع أضواء النهار. فلم يكن الزهد في أسمى ذراه إلا "طريقة الحياة".

أما "مهمة الحياة" فسنراها بعد أعظم شأنًا وأبعد شأوًا لأنها الجمع الكامل لحديث الرسول ﷺ.

وأما "غاية الحياة" فكانت من فقه المهمة والطريقة: جعل السنة أساسًا للعلم والعمل.

ولما قذف به شياطين الخلفاء الأربعة في بوتقة المحنة، بالاسترهاب والعذاب والنعمة، بالسيف الصراط أو بالسياط أو بفضول الدنيا، خرج إمام المسلمين في الزهد والحديث والفقيه ذهبة حمراء، كما يصفه بشر الحافي، وكما يتراءى لنا في الأبواب المتعاقبة التالية.

obeikandi.com